

عدنية شبلي

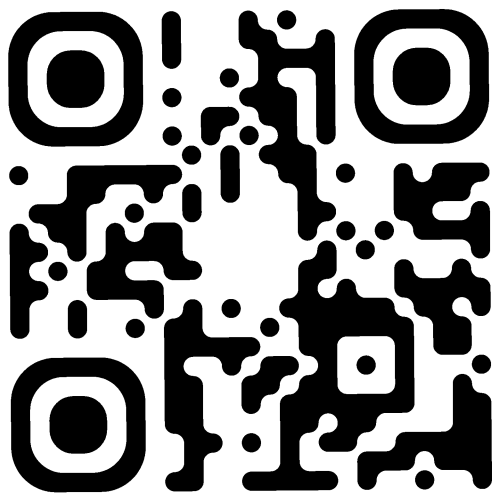


إحياءات واهنة بالطمأنينة

مكتبة

وزيز





سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

إحياءات واهنة بالطمأنينة

وزير

مسي بخفة ووثب بحماس

www.wazizbooks.com

🐦 wazizbooks

f wazizbooks

📷 waziz.books

contact@wazizbooks.com

إحياءات واهنة بالطمأنينة

تصميم الغلاف: عثمان ستو

تدقيق لغوي: أحمد مدره

تنسيق داخلي: علي خلف

رقم الإيداع: ٢٠٢٥/٣٤٥٦٥

الترقيم الدولي: ٦-٠١٨-٧٩٧٦-٩٧-٩٧٨

طبعة وزير الأولى ٢٠٢٥

طبعة مزيدة ومنقحة عن طبعة تحمل العنوان نفسه صدرت

عن دار ميريت للنشر في القاهرة ٢٠٢٢

حقوق النصوص وترجمتها إلى لغات أخرى محفوظة للمؤلفة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

إحياءات واهنة بالطمأنينة

قصص ونصوص

عدنية شبلي

صمت الصورة

في زيارة لمعرض صور فوتوغرافية من أوروبا القرن العشرين، فجأة، أعبر أمام صورة لشارع باريس صغير. الصورة في الغالب مأخوذة في وقت متأخر من الليل، فالشارع فارغ تمامًا، بينما قلة من الأضواء تنبعث من نوافذ المباني المتراصة على جانبيه، وبشكل خاص من محلين تجاريين على يسار الشارع في يسار الصورة، حيث يسطع الضوء بقوة لكن بنعومة. أنظر إلى بقية زائري المعرض وألاحظ بأن أيًا منهم لم يقف أمام هذه الصورة البسيطة والصامتة. هم ينتقلون إلى صور أخرى أشد صخبًا، كتلك التي يبدو فيها عشاق يتبادلون القبل، أو زانيات أو جنود من الحرب العالمية الثانية، أو موتى من جيتو وارسو. صور تحكي الكثير للعين عن ماضي أوروبا خلال القرن الماضي، المليء بالأحداث والتحولات السياسية والاجتماعية، بالألم والبؤس والوحدة، عدا صورة ذلك الشارع الباريسي الهادئة، المأخوذة من أسفل الشارع الذي ينطلق بدوره نحو الأعلى، مجتازًا الصورة عموديًا إلى حيث ينتهي فجأة ويتحول امتداده إلى درجات، يروح يخفيها ضباب ليل شتائي قبل أن يصل

نهاية الإطار. أقف أمام تلك الصورة، كما قلبي. قبل نهاية الشارع، قبل أن يلتف يسارًا ليختفي خلف المبنى الأخير في صف المباني على يسار الصورة، هناك، أو قبله بقليل، بصعوبة، شديدة يبدو مدخل عمارة، إن دخله المرء فسيختفي لا محالة من الصورة، لكنه سيصعد خمس درجات ثم يهبط اثنتين ليجد نفسه في فناء صغير، في حال اجتازه، سيدخل مبنى آخر يتكون من ستة طوابق، عليه الآن أن يصعد إلى الطابق الثالث، حيث سيجد مباشرة إلى اليمين باب شقة معدنيًا بنيًا ذا قفلين. الزوار في المعرض ما زالوا يمضون باتجاه الصور الأخرى، بينما قلبي ما زال يكاد يتوقف. صورة لشارع هادئ، لا أثر فيه لنفس حية. صورة لشارع باريس صغير أوشكت ذات يوم أن أزهد نفسي فوقه. كان حبيبي، الذي لا يزال حبيبي لكنه لم يعد يطيقني، يسكن خلف ذلك الباب البني المعدني. اعتدنا أن نصعد هذا الشارع، هو خلفي لأنه كان يمقت المشي بسرعة مثلي. حين أصل مدخل العمارة، كنت ألتفت إلى الوراء أنتظره دون أن أنظر إليه، إنما إلى عتبة مدخل البيت بلونها البارد، إلى أن يصل وندخل معًا بصمت، ثم نصعد إلى الشقة بصمت.

كان والداي، وأعتقد ما زال، يتشاجران كثيرًا. شجارهما يدوم لبضع دقائق على أقصى حد، بينما الصمت، الذي يُؤلّده شجارهما ذاك، يدوم لأيام. كان الصمت بين أمي

وأبي يثقل على وجودنا نحن أيضاً، أولادهم. كنا نصمت معهم، وبهذا الكون كله.

مكتبة

t.me/soramnqraa

كيف يُولَد الصمت ومتى؟

أسأل أمي مستفسرة:

- يا أمي، حين وُلِدَت، هل كنت صامتة؟

- كلا، كنت تصرخين. ألم أكن أنظر إليك بصمت؟ كلا.
أرجوك يا أمي. كلا.

وُلِدَت وأنا أصرخ إذن، ولا أعلم كيف اهتديت إلى الصمت تدريجياً حتى بات مطبقاً لا سبيل للخروج منه. الصمت في ذلك الشارع الباريسي يأكلنا أنا وحببي. يأكل قدرتنا على أن نقول أكثر إننا نحب. أريد أن أموت من فرط الصمت، لأنني لم أعد أعرف كيف أفتح فمي لأقول له إنني أحبه، ثم أصير أريد أن أموت لأنني متعبة من جسمي الذي ما زال يحبه، لكنه لا يعرف كيف يقول ذلك. ثم، فجأة، ألمحه، الألم، يمشي مختلاً بكامل قواه في الصمت. الزوار ما زالوا يجتازون باتجاه صور أخرى، بينما صورة ذلك الشارع لا تزال هادئة. إنهم لا يعرفون كل ما يخلق هدوءها. ربما بهدم ذلك المبنى كانوا سيعرفون، أو حرقه، وبعض من تلك التي تجاوره، أو تدمير الشارع كله على سبيل «الأضرار الملحقة»، أو محوه عن البسيطة. عندها، كانوا ربما سيقفون أمام الصورة متعاطفين مع ضحايا ذلك الشارع الباريسي الصغير.

أكمل طريقي نحو الصور الأخرى، أفتح فمي بحرف
الواو، أغلقه بحرف الميم: الفرق بين الصوت والصمت.

لندن، شتاء ٢٠٠٧

ليحفظ الله الحب في مكان جاف وبارد

بدأ صوت الأمواج القادم من النافذة بالاختفاء تدريجيًا، حتى أقفل المصراع تمامًا.

على السرير المقابل، استلقت امرأة تحب لأول مرة. جسمها يمتد بتأثير قليل من النعاس، ولا يزال يقل، ومكانه، يحل التوتر. بظهرها، كانت تواجه بقية الغرفة والرجل الذي تحب. هو واجه بقية الغرفة بظهره، ووجهه تعلق بالأمواج العابرة من مربع النافذة. لاحقًا، انضم هدير طائفة إلى صوت الأمواج المنحسبة في الخارج.

لا تدري أين وضع يديه بعدما أقفل المصراع، ولكنها احتاجت إليهما في تلك اللحظة، ولكنها لن تطلبهما. جسمها المتوتر قد يبدو أيضًا أنه يحمل الشعور بالبرد، فغطاها.

غطاها جيدًا.

بعدما لف قدميها بالغطاء، صعد إلى ظهرها وقال من دون رغبة خاصة:

- حبيبتي، أرجوك ألا تذهبي.

وردت بدفء مفتعل:

- ربما لن أذهب.

«ربما لن» تحمل بالنسبة نفسها «ربما نعم»، لكن المحادثة انتهت هناك لراحة كليهما.

سيبحثان عن كلمات حيادية وضرورية تجعل العيش معًا ممكنًا في البيت ذاته وقرب الطاولة وداخل السيارة، وسيبحثان عن نهاية علاقتهما كما يبحثان عن موعد انتهاء الصلاحية على علبة صلصة كريم. هي أرادت أن تكون مركباتها كل شيء، وهو خاف على العلاقة من كل شيء، وهكذا منها. هي متعبة وقد نفذ صبرها تجاهه وتسامحها تجاه أخطائه تجاهها، أما هو فمتعب ثم حزين.

سيقتلان الحب.

سألته:

- هل أنت جائع؟

بعد تردد، أجاب:

- نعم.

- الدجاجة من أمس لا تزال كاملة. ربما سلطة. لكنني لا أريد أن أجهزها.

- سأجهزها أنا.

اتجهها إلى المطبخ سعيدين بقتل أول حديث. ولأن خطاها دائماً كانت أسرع فقد وصلت الأولى، وهو لم يصل أبداً. جاء رنين الهاتف قبل أن تطأ قدمه أرضية المطبخ ليعيده إلى غرفة الجلوس. كانت زميلته في العمل، ومشكلتها العامة هي مع زوجها الغيور الذي يتفحص جسدها كل يوم بعد عودتها من العمل ليتأكد من أن أحداً لم يضع يده أو فمه أو أي شيء آخر فوقها. أحياناً، لدى ارتطامها بحافة طاولة أو بعد أن تقع مثلاً، لا تفكر في ألمها، وإنما ينصب كل تركيزها إلى تفاصيل المكان الذي صارت فيه الحادثة، كمحقق جيد، حتى تقنع قاضيتها بأدلتها، وهو أبداً لن يصدق تماماً. لم تخبره بكل هذا في هذه المحادثة الهاتفية، ولكن في مرة أخرى. حضرت إلى بيته ليعملا على مشروع مستعجل، وهي، سيدة البيت، كانت تقضي إجازة لعدة أيام مع والديها. بعد ساعات من العمل المتواصل، مد يده إلى صدرها، ثم بدأ يعرضها في رقبتها متقمصاً دور الذئب، فخافت أن تترك عضاته بعض الآثار، وخبرته عن الفحص اليومي.

كان البصل آخر ما قطعته. بعد قليل من الملح والزيت والليمون، انتهت السلطة، وهو لا يزال مع الكلبة التي كان معها خلال كل اليوم. فتحت الحنفية من المياه الباردة، وغسلت وجهها المليء بالدموع، ثم شربت. لا

تدري لماذا تصير بحاجة إلى الذهاب إلى الحمام بعد كل مرة تبكي فيها، وهل يحصل الشيء ذاته مع بقية البشر.

بعد الحمام، اتجهت إلى فراشها، وأخرجت من تحت الغطاء كتاب «G.» للكاتب جون برغر، ورمته في سلة النفايات. كانت السلة مليئة بأوراقه. أغلب الزبالة الصادرة من البيت هو سببها. عمومًا، هو منتج جيد للزبالة، لأنه، على نحو غير استعاري، أي شيء عنده قد يتحول في أي لحظة إلى نفاية. نفاياتها الوحيدة هي نفاية عامة كالتى يُتوقع من أي شخص إنتاجها، كقشرة بطاطا أو علبة تونا أو منديل ورق في أسوأ الحالات. تذكرت أن السلة في الحمام أيضًا ممتلئة، فقررت أن تباشر بحملة تجميعها وإخراجها إلى الحاوية، ثم ذلك قد يمنحها الإحساس ببداية جديدة.

بينما كانت تحمل الكيس في الشارع إلى الحاوية البعيدة، عادت تتساءل حول رمي الكتاب.

عندما التقيا، لم تكن تجهز الطعام أبدًا، كانت تنهي الموجود وحدها دون أن يخطر لا هو ولا أطفال الصومال في بالها. ثم دعته مرة إلى العشاء. معكرونة مع صلصة الكريم بالفطر وسلطة خس وبندورة. جُنَّ الشخص رغم بساطة العشاء، ومنذ ذلك اليوم، صارت تبحث عن كل مناسبة لتطهو له، حتى أصبح ذلك يوميًا.

إحدى الفقرات في الكتاب تتحدث عن الرجل الذي يطبخ من أجل الذوق والمرأة التي تطبخ بدافع من الطباخة داخلها.

عمليًا، هو الذي حوّلها إلى طباخة من أجل ذوقه. وضعت الكيس في الحاوية وعادت إلى البيت.

كان لا يزال على الهاتف. جهزت الطاولة، ثم جلست عندها دون حراك. ربما تعجبه تلك الكلبة العصبية.

هو سمعها تتحرك في المطبخ، ثم صوت سقوط السكين على خشبة تقطيع الخضار، وقد سئم الركض قبلها إلى كل شيء حتى لا تُجهَد أكثر من اللازم. يعي أنه منذ وقت طويل لم يرَ حتى جرابًا قذرًا. لكن، عندما رآها تحمل كيس النفاية خارجة، قرر أن يستمر في محادثته. لا يريد أن يعيش هذا الإرهاب منها إليه. إرهابية. مجنونة. مقرف.

كم هو مقرف! في البداية، ولأنها تؤمن بأنها تحبه أكثر منه إياها، ولأنها تؤمن أن قيس أحب ليلي أكثر مما هي أحبته وصار مجنونًا بها، اتفقا أنها هي قيس وهو ليلي. كان يناديها «مجنونة» بكل نعومة. ثم، في وقت ما، وغير محسوس، أصبح يصرخ باتجاهها «مجنونة» في كل مرة لم يرغب بفهمها.

هو يرى ظهرها الموجه إليه مبشرًا بكل الرفض،
والمحادثة الهاتفية تسير دون أي سيطرة. لقد أراد حقًا
أن يصنع سلطة لذيدة وأن يتناولوا عشاءهما مع قليل من
الدفء، ولا يدري لماذا لا ينهي الحديث. يستطيع أن
يرى من حيث يقف أنها لم تضع فلفلًا أسود. المتحدثة
في الجهة الثانية أصبحت تقفز في مزبلة من الكلمات،
وهذا أراحه من مهمة التركيز. إذن هو ليس ضحية، وآدم
على الأغلب لم يكن ضحية. في الكتب الدينية، لا أحد
يذكر إن كان آدم وحواء قد أحب أحدهما الآخر مثلاً،
الحديث هو عن الجنس فقط. لا يريد أن ينام معها أكثر.
انتهت المحادثة.

- أوه! أنت جهزت السلطة؟ كنت أود أنا أن أجهزها
لك.

- لي؟

لقد شعرت بأن هذا الجواب سيخرج الحديث من
حياديته، فأسرعت تلاحق الحيادية:

- كنت جائعة، فقلت نستفيد من الوقت، مرة أخرى.

أخذت صحنها، أخذ صحنه وخلفه نفسًا عميقًا. يرى
كيف سيمتد الصمت، فحاول إحياء الحديث مرة أخرى:

- لقد كانت ...

- لا يهمني.

وحتى لا يكون هذا الرد بداية لشجار سيعيدهما إلى قرب ما بعد انتهائه، رفعت رأسها عن الطاولة وابتسمت بدفء.

هو متعب من شجاراتها ومن جنونها خلالها، فرد بابتسامة وسأل:

- هل ممكن أن تعطيني صحن السلطة؟
- انتظر قليلاً.

وضعت لنفسها، ثم أعطته الصحن، وبدأت بالأكل محاولة أن تنسى كل شيء عدا ما تأكله. هو لا يحب طريقتها في الأكل. تأكل بسرعة وبقليل من الشراهة ممكن. سألها:

- كيف السلطة؟ لذيذة؟
- نعم.

طريقة سؤاله تحدد. الطعم. يوجد لون. كان ممكن أن يسألها كيف السلطة، وهي ستختار ردها وكيف يكون شكله أو بما يتعلق. هو يسأل فقط من فراغ، فراغ برجوازي يميني محدود ويحدد من حوله.

لا يزال ينظر إليها، وترى ذلك بغير وضوح من طرفي عينيها. رفعت رأسها:

- ألا تأكل؟ السلطة لذيدة.

مكتبة

t.me/soramnqraa

- نعم.

- توجد دجاجة أيضًا.

دجاجة أم سلطة أم أي شيء، على كل حال، كان الطعام يسقط في معدتيهما مرورًا بالفم.

أول مرة رأيته كانت في الذكرى الخمسين للنكبة. قبل ذلك التاريخ حتى لم تعرف عن وجوده. ذهبت مع صديقة تحب الموسيقى، وهي، ليس بشكل خاص، إلى حفل نُظِّم لتخليد ذكرى النكبة للموسيقي أنور إبراهيم. في الاستراحة، بينما جلست تراقب الحضور المتفرق، رأيت شخصًا يرتدي جاكيت أزرق يعبر الممشى بين صفى الكراسي، وكأنما على وجهه جهد جميل لصعود مِيلان القاعة، وجهد آخر جميل في يده اليمنى حينما لامست ساقه في لمحّة. بعد ثلاثة أيام، رأيته مرة أخرى، وبعد ثلاثة أيام أخرى، بينما كانت تمشي في الشارع وحدها في العصر، والشارع قد فرغ للحظة من كل الأصوات والسيارات، وبقيت الشمس بعيدًا في السماء وضوؤها على المدينة والأشجار الخضراء، اكتشفت أنها تحبه.

والآن، ها هي الذكرى الثانية والخمسين على النكبة تمضي إلى القادمة، وهي حتى لم تشعر بالوقت. إذا أبطأت قليلًا في الأكل فستسرب الدموع. الأكل بسرعة منعها،

وهذه الفكرة جعلتها توشك على البكاء. هو كان يأكل ببطء قاتل. لاحظت خيال حركاته المنتظمة وسمعت الإيقاع الممل لالتقاء الشوكة مع السكين مع الصحن مع الفم.

ما دخل فمه كان ذا طعم حيادي، وكل ما شعر به هو برودة الشوكة. أكل ببطء بدافع من شراحتها. ألف مرة رجاها أن تأكل ببطء، وهي تُجَنُّ. طلب كهذا بالنسبة إليها يرمي في نهاية المطاف إلى محو شخصيتها، وهو أرادها أن تستمتع فقط. كم لا يطيقها! كم لا يطيق هذا الثقل! توقف عن الأكل، وهي اعتذرت بصوت مختنق، ونهضت إلى أول باب أمامها مختفية خلفه.

انتهى العشاء.

لن يلحقها. بدأ بجمع الأطباق ونقلها إلى المطبخ. يضعها كيفما كان وكيفما يريد، وهي طبعاً ستأتي وتعيد تغيير ترتيب الأشياء كأن ما فعله خطأ. لقد عاش جيداً. رتب الصحن وجهاز سلطة خس وسلطة تونا وألف شيء آخر قبل أن يتعرف إليها. ومعها، كان كل ما يفعله خطأً قليلاً. إذن لتطبخ هي ولتنظف هي، فلماذا تزعلي؟ اختارت، فلتعيش خيارها. حسناً، هو مقرف، ولكن رداً على جنونها. في الخارج، في العالم، في المجتمع، هي تبدو رائعة، جنونها يضع ابتسامة على أكثر فم حزين. رجال

كثيرون يحسدونه عليها. ليأخذوها. ليتركوه وحده، كل العالم. هو حزين وفقط حزين، وكل ما يرغب فيه هو أن يخرج في سيارته ويقفز من عند أي حافة صخور، أو أن تنتهي هذه الليلة حالاً. أو ربما يعانقها، يُقبلها، وتصير هي فجأة ضاحكة وفاضحة. إنها قادرة على أن تخبر القمر عن كم هو مقرف، وقد تعتقد أن القمر يأخذ صفها، أو حتى علبة كبريت.

هو متعب حتى إنه بكى.



اختاراً أصغر سرير فردي، ليكونا أشد ما يمكن قرباً. وما زالا ينامان في السرير ذاته. ليس في اللحظة ذاتها.

لم يقرأ، لم يتحرك، لم يلمسها. كان كل شيء كالنائم تماماً دون أن ينام، حتى لا يزعجها. عندما كان يقول لها إنه يبقى صاحباً بعدها لوقت طويل في الظلمة، ترد عليه مع ابتسامة غير مصدقة، لأن الرجال دائماً ينامون قبل النساء. تذكر أنه كان يشخر في البداية، وما عليها إلا أن تزعجه قليلاً حتى يغير وضعيته جسمه فيتوقف عن الشخير. لاحقاً، لم تعد تسمعه، ربما لأنه لم يعد يشخر، أو لأنها اعتادت على شخيره ولم تعد تسمعه.

ربما نعم كانت تنام قبله ولكن على الأغلب لا. ربما ناما في اللحظة نفسها. هل ممكن أن ينام شخصان مختلفان في اللحظة ذاتها؟

حسب رأيه هو:

- لا.

هو كان ينام بعدها.

مؤخرًا، مرتين، نام بشكل قاطع قبلها. مرة بعدما عادت من إجازة لعدة أيام قضتها مع عائلتها، حيث قتلها الحزن على ما رأته من علاقة والديها في شيخوختهما. لم تُرد أن تخبره بشيء لأن سبب كسبها دائمًا سيبدو له مبالغًا فيه، لكنه أصر وأصر حتى أخبرته. بعدها، بدا لها كل شيء أشد حزنًا، فأخبرته أيضًا كيف أن رغبتها في الحياة صارت تتقلص مع كل يوم جديد حتى لم تعد تظهر، ومحلها تعود الرغبة في الموت ممكن. وفجأة، سمعت تنفسه المنتظم. لقد نام.

مرة أخرى الآن. مرة أخرى تنفسه منتظم، على الأغلب لأن لا شيء في النوم يخل بنظام أي شيء، حتى التنفس. عندما حاولت أن ترافق تنفسه بتنفسها كادت تختنق. أسرعَت تتناول الهواء حسبما ترغب، ولماذا أساسًا مرافقة أنفاسه؟ لماذا لا تكتفي بسماعها؟

أشعرها هذا كم فقدت صوابها في حبه، هل ممكن لمجنون ليلي أن يستعيد صوابه؟

حزين.

لن تصبح الأسطورة، ولكن سيختفي الألم.

تقنيًا، كان يوم صحت فيه وصارت تحب، وتقنيًا أيضًا، لن تصحو غدا وتجد أن الحب قد اختفى. نسيت تمامًا ذلك الوقت الذي كانت ترغب في كل لحظة منه في أن تحب. حربها الآن مع الحب وليس معه.

والحب هو فكرة تراود الجميع من حين إلى آخر. «أود أن أحب». «أرغب في أن أحب». «أريد أن أحب». جمل تأتي من كل صوب، عبر خط الهاتف، عبر التلفزيون وحتى الجريدة، عبر هواء يفصل بين اثنين لا يحب أحدهما الآخر، في البيت، في المطعم، في محطة باص ٢٣ و ١٣ و ٢٥ و ٦٥. يسبقها قليل من الصمت والعينان تضيعان في الفراغ: «أحب أن أحب».

في السابق، كان للحب معنى مفهوم. الذي لا يحب يلتقي بالمصادفة بشخص أو شخصاً لطيفة ثم يصبح حباً عادياً ولطيفاً. وفعلياً، لم يحدث قط.

للحظات، بدا كل شيء سهلاً، فمدت يدها إلى شعره. ترفعه فيعود وينزل دون أن يوقظ النائم. ممكن هي المرة الأولى التي يمشي الإصبع الصغير في اليد اليسرى بين شعره. يتوقف ليلف بعض الشعرات حول نفسه، ثم يعود ويدور بالاتجاه العكسي ليطلق سراحها حذرًا ألا يشدها.



أفاقا من النوم قبل ساعة المنبه بقليل. قبَّلها ثم قال:
- صباح الخير.

لقد سئمت صباح النور.

سألها:

- كيف نمت؟

لم تَرُدْ لأنها تعتقد أنه لا حاجة إلى أن ترد، ولكن
السؤال أزعجها إلى درجة أنها ردت:

- عادي.

- عادي؟

- عادي. مثل أي نوم. عادي.

وكأنها عليها أن تسأله هي أيضًا «وأنت؟ كيف نمت
أنت؟» لكنها قاومت هذا السؤال الفارغ من أي معنى
عدا آداب الحديث الزوجية التي تحاول أن تثبت في كل
لحظة كم هي مليئة بالحب دون أن تقنع أي أحد ولا حتى
سائلها.

قال:

- أنا لم أنم جيدًا، منذ ليلتين. منذ ليلتين، أنا
واضعًا يدي في كلسوني. لم يكن يوجد مكان كافٍ
لها، فشددتها في الكلسون كي لا تقع على الأرض.

- في هاتين الليلتين كان كتفي يؤلمني، وكان يجب أن أنام على ظهري.

فكرت في أن تقترح عليه أن ينام في سرير آخر، غير أن اقتراحًا كهذا في مثل هذا الوقت قد يجلب التعب أكثر من الراحة. على كل حال، لم يؤلمها كتفها هذا الصباح.
سألها:

- لماذا عاد كتفك يؤلمك؟

- ممكن بسبب البرد. بسبب البرد ممكن. أعتقد.

- منذ متى؟

- منذ يومين.

- نعم، رأيتك أمس تمشين وظهرك منحنٍ.

حسب رأيها هي دائمًا تمشي وظهرها منحنٍ قليلًا. ربما بدأ ذلك عندما كانت في الثانية عشرة وبدأ صدرها يكبر. لم تقل له الحقيقة أنها دائمًا تمشي هكذا، ولأنه دائمًا يركض أمامها فقط لم ير كيف تمشي.

هو أيضًا لم يكن ليخبرها عن كل هذا، أي اليد والكلسون، لكنه، في الليل، شعر بيدها تبحث عن يده، فوصلت إليها في الكلسون. لم يرغب في أن تفكر أنه يخفي عضوه عنها، وفكر في أن يقترح عليها أن ينام في سرير آخر، غير أن التوقيت سيئ.

هو أراد أن يذهب إلى العمل مبكرًا، وهي أرادت أن تنام لأنه ما زال مبكرًا. وبسبب تعامله الخشن مع الخزانة والجوارير فقد قررت أن تصحو. ولأنها صحت فقد قرر أن يصنع القهوة لهما، وهذا تأخير فقط لنصف ساعة.

بينما كان يصنع القهوة، جاءت وقبّلتها:

- هذا حنين إلى قبلك لي في الصباح.



منذ عامين تقريبًا وهما يشربان القهوة تقريبًا كل يوم، وكل يوم تقريبًا، يأتي التساؤل نفسه حول القهوة:

- كيف القهوة؟

- ممكن..

- أهمم..

- نعم..

- نعم.. ممتازة!

- آه.. ممتازة.

وتجري هذه المحادثة مع الفنجان الأول، ثم ينتقلان إلى الصمت. دوافع هذه التساؤلات صادقة يوميًا، كأن كل يوم هي تجربة جديدة في صنع القهوة، لا علاقة لها بتجربة الأمس أو بما ممكن أن تساهم به للمستقبل.

وكما لا علاقة لهذه التجربة بالتجارب السابقة، لا علاقة لهذا النقاش بشربهم للقهوة أو عدولهم عن ذلك. سيشربان القهوة في كل مرة، ولو كانت أسوأ ما يكون.

مع الفنجان الثاني، بدأ يتحدث:

- لقد انتبهت أن الصخور تمشي بالاتجاه نفسه. انظري .. بشكل عمودي.

لقد شرحت له ألف مرة كالعادة أنها لا تحب أن يشير أحد إليها.

- نعم.

- ولكنك لم تنظري.

- نعم، ولكنني أفهم ماذا تقصد.

- ماذا؟

- أن الصخور عمودية.

- أي صخور؟

- تلك.

- كلا. ليست تلك. تلك. عمودية، تمشي باتجاهنا بشكل عمودي.

ساد صمت ثقيل. يصمتان بدل أن يعتذران الواحد للثاني.

- لماذا؟

- لأنها تمشي بالاتجاه نفسه.

- نعم، ولكن لماذا تمشي بالاتجاه نفسه؟

- هذا منذ العصر الجليدي.

- نعم، ولكن لماذا؟ لماذا؟

عندما لا يفهمها، يصيبها ألم في الرأس.

- صار تشقق في الأرض، ودفع الصخور على الجانبين،
فصارت عمودية مثل ساندويش.

- رأسي يؤلمني.

عاد الصمت لوقت أطول، ثم إلى النهاية.

- لا يوجد شيء في البيت.

- سأعود مبكرًا، في الثالثة، ونذهب معًا لشراء
الأغراض.



بعض الأيام، تبرد القهوة بسرعة، فتعبر برودتها
إلى الأصابع التي تحمل الفنجان، ثم إلى الشفاه والقم
والمعدة وبقية الجسم، وأحيانًا، تنتقل إلى الجو وتبقى
لساعات طويلة هناك.

عندما أعادت الكؤوس إلى المطبخ، وجدت خياراً. هو ذهب. الخيار عدا أنه جيد للبشرة، جيد للفم، إذ يحو طعم القهوة البارد، وممتاز للمعدة، يُبعد الإحساس الثقيل منها.

صارت تنتقل بين الغرف، تعيد إليها الترتيب الاعتيادي. تقفل الخزانة والجوارير وراءه، وترتب أحذيته في صف مستقيم. يحبطها لا مبالاتها تجاه حذاء يقف بزاوية أقل من ١٨٠ درجة.

لقد اقتنيا أغلب أحذيته معاً، وشاهدت موت تلك التي لم يقتنيها معاً. اختاراً أحذيته وملابسه معاً بدافع من رغبة ارتدائه لأشياء أرادت الرجل بشكل عام أن يرتديها، مثل نوادي التعري، بفارق أنه هنا ارتداء. أولئك النساء اللاتي يتعرين من أجل متعة الرجل. هذا الرجل الذي يلبس لمتعته.

لا، أبداً.

قبل أن تدخل الحمام، أكلت كل الخيار خوفاً من الجراثيم التي قد تقفز إليها.

لقد ترك على طرف المغسلة شفرة الحلاقة. لشدة ما عمل هذا صار على المغسلة صدأ، وما زال يعمل. تساءلت داخلها إن كان قد لاحظ هذا الصدأ أو تساءل عن مصدره. إنه هو. المسؤول المباشر لإحدى حالات الصدأ اللانهائية في العالم.

وقد تستمر قصصها مع كل شيء في البيت، لكل شيء قصة، حتى التعب، وفكرت أنه ممكن قتل الحب بقتل قصص الأشياء المحبوبة. متى ستعبر من قرب شيء يخصه كما لو أنها لم تعبر شيئاً؟ مثل هذا الحجر الصغير الذي وضعه عند طاولتها. ربما أفضل قتل النظر. ربما اللمس قبل النظر. ربما كل شيء قبل كل شيء.

عادت إلى المطبخ لتحاول كتابة قائمة المشتريات.

بندورة، خيار، خس. هذا دائماً. أيضاً ذرة وتونا ومعكرونة. باذنجان، قرنبيط، كوسا، جزر، ليمون، فواكه. دجاجة. أجبان. فطر وصلصة كريم، بصل أخضر، بقدونس، حليب. ممكن بيرة أو نبيذ أبيض. ورق تواليت. لوبيا. طحين. شيء لذيذ. مغلفات. لبن. زيت ذرة.

وضعت الأشياء المبدئية الناقصة، مبقية الإمكانية لإضافة أشياء أخرى ستذكرها خلال النهار. خبز.

ما هو جيد مع الشمس أنها تغير مسارها ومواقع ضوئها في البيت، بعض الأيام بشكل حاد، ومرات التغيير تدريجي جداً. حديثاً، اكتشفت هذا. رغم أنهما يسكنان هذا البيت منذ سنتين، لا تزال تكتشف زواياه. عندما كانت تعمل، كانت تخرج في الصباح كل مرة بسرعة وتعود كل مساء كل مرة متعبة. هو الذي نبّهها أنها جعلت طريقاً خالياً من الغبار بمرورها الدائم في الأماكن

نفسها، حتى إنه ممكن تتبّع حركتها اليومية عبر الطريق غير المغبرة.

هذه الطرقات اختفت بعد أن بدأت بحربها ضد الغبرة. حرب أبدًا لا تنتهي ويجب أن تنتهي. لوقت ما، بدا لها الانسحاب من حرب الغبرة أصعب من الفوز. وإن لم تنظف فماذا ستفعل؟

عندما عملت، أرادت وقتًا لكي وكي وكي، والآن، هي تنظف البيت وتكتب قائمة المشتريات منتظرة عودته. منذ لحظة خروجه، تبدأ تنتظر عودته. كل ساعة، ساعة يد أو حائط أو منبه، كلها تشير إلى وقت نسبي، متعلق بساعة عودته. تقتل الوقت الممتد بين كل نظرة وأخرى على الساعة، وتفعل الأشياء كي تتغلب على ألم الانتظار.

تناسى الوقت لساعات، فتنظر إلى الساعة وتجد أنه مرت فقط بضع دقائق.

لو تصبح آلهة يونانية وظيفتها دفع عقارب الساعة. ما كانت لتستطيع عمل شيء أفضل من هذا، أو أنه كان لديها رغبة أشد صدقًا من رغبة تقريب ساعة لقاء الحبيب.

وهو يحبها عندما يكون لديه وقت.

سيعود بعد ثلاث ساعات. من الغد، ستبدأ بعدم
انتظاره. ستخرج مبكرًا في الصباح من دون ساعة،
وستذهب إلى أماكن بعيدة تحتاج إلى كثير من الوقت
للوصول إليها وللعودة منها. كل يوم مكان جديد حتى
تتركه. يجب أن تتركه.

خرجت إلى الحديقة، وتذكرت «ملح» عند رؤيتها
لطرف البحر.

الطبيعة جميلة. الأعشاب، الزهور، حتى شجر الصنوبر
الذي لا تطيقه، رأيته. اقتربت من أحد الكرسيين وكان
مغبرًا جدًا، والثاني أيضًا، فجلست على الذي غبرته أقل.

من كرسيها، فكرت بكل الإمكانيات: أن تموت من
الملل، أن تموت من الانتظار، أن تنتحر. لكن قائمة
المشتريات الموضوعة على طاولة المطبخ كانت تبدو في
الخلفية تشدها إلى الحياة.

لا تدري كيف مر الوقت حتى وصلت الساعة إلى
الثالثة إلا عشر دقائق. لكن هذا لا يعني شيئًا. سيتأخر.
المرّة الوحيدة التي وصل فيها في الوقت كانت المرّة
الأولى التي التقيا فيها.

بعد تفكير ثانٍ أو خامس، قررت ألا تنتظر إلى الغد
حتى لا تنظر إلى الساعة، لن تنتظر هذا أيضًا، ستبدأ الآن.
لن تنظر إلى الساعة أكثر.

كلما ازداد الوقت والتأخير غير المعروف الآن، زاد تحديها ورغبتها في مقاومة نظرها، ولا تعرف إن كانت ستنجح. عندما يأتي، فكرت أن تسأله إن كان قد أسرع فلأي سبب، هل لأنه لم يُرد أن تبقى تنتظر في البيت، أم بسبب خوفه منها. هل أساسًا أسرع كي يراها؟

فتحت النافذة. البرد كان يهدئها أحيانًا. لن ينتهي الانتظار إلا عند حضوره. هي التي تملك هذا الإحساس، هو الذي سينهيه. على كل حال، سيعود الليلة.

قرأت قليلًا، مشت قليلًا، صنعت كعكة قليلًا، قصت أظافرها، تحممت، سمعت موسيقى قليلًا، قرأت قليلًا، مشت قليلًا، جلست أمام النافذة تشاهد التحول غير الملاحظ من النهار إلى العتمة، ثم خرجت إلى الحديقة.

لقد نسيت أن هنالك حياة في الليل، وكيف أن العتمة لطيفة وهادئة، ونعومة الأسود عندما يختلط مع خضار نباتات الحديقة. في هذه العتمة، هي أيضًا ضائعة مع تفاصيل الحديقة.

دخلت إلى البيت، وأشعلت الضوء في طريقها من الشرفة حتى المطبخ. فتحت الحنفية، ثم وضعت فمها تحت الماء وشربت. كانت عطشى جدًا. من تحت الحنفية، سمعت باب الحديقة، ثم باب البيت. نظرت إلى الساعة، وكانت الثامنة والنصف.



تأخير لخمس ساعات ونصف.

خمس ساعات ونصف ليس بالأكيد ممكن تسميتها لغويًا «تأخير».

- هل قلت إنك ستأتي في الثالثة لنذهب معًا لشراء الأغراض؟

- نعم، ولكن آسف، كنت مشغولًا، كنت ...

- أنا متأكدة. لم تكن تنتظر خمس ساعات ونصف على الطريق كي تتأخر.

- ألا شيء في البيت؟

- لماذا تسألني؟

- هكذا، عادي لم أقصد ...

- لماذا كلمة «أقصد»؟

- أنا آسف.

- حقًا آسف؟

- أرجوك ...

- لا حاجة.

حاول أن يضع يديه على كتفيها، لكنهما بقيتا في الهواء حائرتين مترددتين، وهي، بنظرتها، أعادتهما إلى جيبه.

- غداً سأصحو مبكراً وأذهب لشراء الأغراض. أين قائمة المشتريات؟

- لماذا تخبرني بهذا؟ هل تعتقد أنه يهمني أو يهم حذائي المشتريات؟ ثم ...

عادت إلى الطاولة، وأخذت الورقة التي عليها القائمة، ومزقتها.

- هذه قائمتي. اكتب قائمتك أنت بنفسك.



كأن عالمه يصبح فوق سجادة تشدها هي في لحظة وتُطَيِّرها من فوق الشرفة، كما تفعل مع السجادة المغبرة. لا يدري ما ينقص.

حتى وقت القهوة الجميل صار صورة أخرى من شجاراتهما الدائمة. كيف تحدث هذه الشجارات؟

يشعر أنه لم يعد يجدها أكثر. يحاول أن يعطيها حبه وصدقه ورغبته، ولكنه يخاف ويتراجع. يحس بأنه لا شيء. هو الذي يُقَرِّبها إلى الدموع أكثر مما يُقَرِّبها إليه. وكم لا يستطيع سماعها تبكي! دموعها تجعله يكره نفسه.

هي في البيت وقد تكون حزينة. يريد أن يبتعد من كل هذه الأماكن التي هي فيها، ومن كل هذه الأماكن التي يرغب في أن يُحضِرَها إليها. حقاً هو يحبها ويريد أن يكون

لها وقربها ووراءها وفوقها وتحتها، فيصير الحب سباقًا
بين الألم والعذاب. كل مرة أقل حزنًا أقل رغبة، وكل مرة
أقل رغبة أقل حبًا. أقل ألمًا. أقل رغبة.

حتى ما يعود الحائط الأبيض عادي، ولكن تعب
لعينين تعلقتا به بلا إرادة. لا مناص.



ربما يكون هذا حبًا بشكل عام. بشكل خاص، ذلك
الإحساس اللطيف الذي قد يأتي من رؤية ثلاث فراشات
بيض، أو نوم عميق، أو عصفورة تقفز أمامه كأنها تدله
على طريق العودة إلى البيت. كل هذا لم يكن موجودًا في
حبهما.

لقد غادرت.

القدس، صيف ٢٠٠٠

أفضل فراشات وأفضل مروحيات لعام ٢٠٠٠

حدث يرتبط مع ٢٠٠٠/٢/٨

تحت السور مباشرة، ألقى بزجاجات بيرة فارغة،
بينها، بدت بعض الأعشاب الخضراء، وعليه، وقفنا
ننظر إلى البحر.

وعلى البحر، تمر، بالإضافة إلى أنظارنا، ريح قاسية.

كانت الريح تقرص سطحه، دون أن تكثرث لعناء
تحريكه. رؤية المياه تنتفض فجأة ثم تختفي دون أن
يلاحظها أحد من البداية. تؤلم حتى درجة أن توقظ فينا
رغبة أن نحل مكان البحر. أن تقرصنا الريح.

ومن حيث لا أدري، وعلى المشهد ذاته، بحر وسور
ومزبلة وأعشاب، أضيفت فراشة.

أخرجت يدي من جيب معطفي، وربما هو أمل
يجب أن ينتهي أخيراً بأنها قد تدفأ هناك. فوق معطفه،
تراكمت طبقة ضوء، وهكذا، تحولت خشونة الصوف
المألوفة إلى هالة تحيط بذراعه حتى كفه نصف المفتوح.

عندما لمستها، استدار إليّ، والتردد الدائم، الذي يملأ روحه، بدا واضحًا في عينيه، عينيه اللتين ضاعت تفاصيل رموشهما مع بقية الضوء.

كم أنت جميل! سألت:

هل رأيت سياج ذلك البيت؟

فاستدار إلى البيت والضوء معه، وارتفع مستوى طيران الفراشة قليلًا عن سطح المزبلة.

هل كان أساسًا قبل هذه اللحظة فراشات في العالم؟

على يميننا، كان بيت وحيد، تجلس في ساحته خمس نساء يضحكن بشدة، فيبتسم هو ابتسامة السيد المعتقد لسعادتتهن، ولأفكاره.

عند النظر إلى النسوة، قد يتلاشى السياج المحيط بهن، لكنه هناك، وإليه أردته أن ينظر، إلى عشرات الزهور البلاستيكية التي غُلِّقت عليه. حمراء وصفراء وزهرية ولبلىكية وبيضاء وصفراء وحمراء.

هذه الزهور البلاستيكية على السياج الحديدي كانت حاليًا الطبيعة الأكثر ممكنة في المكان، تحيطها من كل جانب تقريبًا هالة من ضوء الشمس.

الفراشة أيضًا تحيطها هالة من الضوء، والمزبلة والأعشاب. ولم لا؟ هل سيختاره الضوء هو وحده دون كل هؤلاء؟

المشهد لا يزال على حاله: بحر، ربح، سور، زجاجات فارغة، أعشاب، نساء، هو، أنا، فراشة. ومن منا يملك قوة على الحراك وتغيير حال المشهد؟

من هنا من على حافة السور، لا تبدو الإشارة «مخرج» مع هالة ضوء، من الفلورسنت هذه المرة، تحيط بكلمة «خروج»، وبرسم لإنسان محايد المعالم، كل ما يبدو عليه هو أنه يريد أن يخرج، لكن، بحكم وظيفته، لن يتحرك أبدًا.

تمامًا كما في المشهد السابق، ربما أكثر برّدًا.

عدنا نبتسم أحدها للآخر كسيدين مُعتَقين أحدها للآخر. أخيرًا، بقدر ما أعطت تلك الأزهار البلاستيكية رائحة، بقدر ما منح أحدها الآخر دفئًا.

في كل هذا الازدحام من الأفكار والأحاسيس، لا تزال الفراشة تطير، ربما لأن لا شيء آخر تستطيع أن تفعله من أجلنا، فربما لم تكن هنالك حاجة إلى أن تكون.

تطير الآن على مستوى حبنا.

ويزداد الارتباك، لأن لا شيء يمكن لأحدها أن يبادر به، بالرغم من كل ذلك القرب الذي تبينناه. فجأة، ابتعدت الفراشة، فركضت خلفها وهو خلفي.

كلما ابتعدت، ازداد علوها وتبدلها للمشاهد. أولاً طارت في اتجاه البيت، وقبل أن تصل السياج، لفت إلى اليمين وأكملت مسارها بمحاذاة السور، ثم توقفت لبضع لحظات في الهواء، فتوقفت وتوقف هو. الفراشة الآن على علو أربعة أمتار، وهو على بعد مترين. هنالك شيء في حركة أجنحتها من حركة جفنيه. تلك البساطة في كليهما، ذلك هو.

عادت تطير إلى أعلى وأبعد تدريجيًا، لكن ثقل أنفاسي يمنعي عن خفتها. وللحظة، خلال النظر إلى الخلف، انفسح مشهد جديد لبُعْدٍ.. هو هناك.

بقينا معًا إلى الأبد، هي أمامي وهو خلفنا، حتى ما عدنا نستطيع الملاحقة أكثر.

لو كنت أعرف أن هذه ستكون النهاية لكنت على الأقل عدت بسرعة وعانقته بشدة، بدل أن ألاحق تلك الفراشة.

٢٠٠٠/٢/٢١

قبل أيام، لاحقت فراشة.

أمس القمر.

في البداية، كان يبدو كمصباح دائري، لا يمكن تفرقه عن بقية المصابيح في شارع الحي.

٢٠٠٠/٣/١١

أن تسمع صوت أوراقك تطير ولا تتحرك لالتقاطها.
الضوء يمسك برقبتى جيداً ويهدئني.
توجد أيضاً فراشة تطير.
أول شيء جميل هذا اليوم.

٢٠٠٠/٣/١٥

أسرعت. كلا لم أسرع، ولكن جلست على أول كرسي
وجدته خلال حزني، فوجدت أنه لا يمكن إقناع الألم أو
الحزن.

انتهى وقت الحب. معه، تعاسة شديدة. من دونه،
تعاسة أقل وأصعب.
سأنتظر قدوم الفراشات.

٢٠٠٠/٣/١٧

أقل حزنًا.

٢٠٠٠/٥/١٦

لا أكثر ولا أقل. كما بعد نوبة قلبية، لا أفضل ولا أسوأ.

.Stationnaire

سعادة وحيدة تأتي من الحمامة التي تأتي كل صباح
خلف النافذة وتهذر بهدوء. لا أحد معها. وتوجد فراشة
بيضاء، هذه المرة الثالثة التي أراها في المنطقة.
أشعر بهدوء، لكنني أريد أكثر.

٢٠٠٠/٦/٩

يوم آخر، لا أفضل ولا أسوأ. ممكن أسوأ قليلاً.

الصباح يمر كل يوم بسرعة.

لا تزال توجد فراشات ولم ينفد سحرها بعد. عندما
أنتبه للحظة حولي، تمر واحدة على الأقل.

لا أدري ما الفرق بين فراشة بيضاء وفراشة صفراء.
أعتقد أن البيضاء تجر خلفها يومًا جميلًا، والصفراء يومًا
غريبًا. أيضًا البيضاء تمر أمام النافذة الخلفية، والصفراء
تمر في الساحة.

وجود كليهما يجعل المشهد أفضل، ولكن من دون
طعم للحياة.

٢٠٠٠/٦/٢٢

لقد تعشيت الآن، صنعت وجبة كاملة لكي أقتل الوقت، والحزن خلاله. بعدما انتهيت من الأكل، بقي طعام لشخص آخر. فسيبقى لي للغداء غدًا.

لو كانت الفراشات تطير في مثل هذه الساعة حولي لأراحتني من الذاكرة حوله.

٢٠٠٠/٦/٢٣

الفراشات لن تفيد في مثل هذه الحالة.

في طريق العودة إلى البيت، وكان الشارع فارغًا كالعادة، وقفت فتاة سائحة تصور الشارع وأنا أمشي فيه.

لا بد أنني ظهرت في صورة السائحة. في هذه الصورة التي ستضعها فتاة غريبة في ألبوم بعيد، في مكان أغرب وأبعد، سأظهر أنا، دون أن يعرف أحد عن درجة حزني في هذا اليوم.

٢٠٠٠/٧/٢٢

قلم جديد.

الحزن لا يزال يحوم حولي، وكذلك الفراشات البيض.
كيف فجأة أصبح الحزن؟ وكيف فجأة ظهرت الفراشات
البيض؟

٢٠٠٠/٨/١١

بحاجة إلى نعومة الفراشات عندما تمر في وقت ما،
فتدل الكون بطيرانها.

كل ما هو موجود حاليًا، شمس في الخارج، بين
الغيوم، تضيء وتخفي ضوءها في هذه المقطورة من
القطار المسافر، كالبرق.
الجمال لا ينتهي أبدًا.

٢٠٠٠/٨/١٣

قلم جديد. صفحة جديدة. عيد ميلادي.

مع بعض الغرباء في قرية أو مدينة ما. هذا ما أفعله في
عيد ميلادي في عام ٢٠٠٠.

نمت قليلًا عندما بدأت تمطر. كانت عاصفة. ثم
أفقت، وإذا شمس ودفء، وفي الخارج، بين الأعشاب

والزهور الصغيرة، كانت فراشات بيض تحيط بالمنطقة.
واحدة استقبلتني وذهبت، وواحدة جلست معي هناك،
وأخرى ودّعتني.

٢٠٠٠/٩/١

توجد فراشة بنية صغيرة في البيت كأنها أشد مللاً
مني.

كل اليوم، تروح وتأتي على حيطان الغرفة.

٢٠٠٠/٩/٢

أمس، معست الفراشة. أول مرة أقتل فراشة. حتى إني
لم أشعر بقتلها لشدة نعومتها.

عندما رفعت إصبعي، وجدت أن جسمها قد ترك أثراً
مثل الغبرة، فمسحته وقد زال بسهولة مفاجئة.

٢٠٠٠/٩/٣

دائمًا أصل إلى نقاط التفتيش ومعني الآثار البغيضة
التي يُخلّفها في المرء إسرافه المفرط في الشراب.

جئت كل الطريق وقد لا أدخل غزة. تحت مقعدي،
توجد فراشة صغيرة ميتة.

٢٠٠٠/٩/٢٣

حتى في مركز الشرطة، توجد فراشات.

٢٠٠٠/٩/٢٨

لقد انضم إلى فضاء البلدة القديمة مروحيات.

مكتبة

t.me/soramnqraa

٢٠٠٠/١٠/٦

مرة أخرى، صَحَّتني المروحيات. عدت ونمت قليلاً.

عندما أفقت، كان كل شيء هادئاً. السماء. الحارة.

البيت.

٢٠٠٠/١٠/١٣

من حيث جلست أشرب القهوة في الفرشة، رأيت

مروحية تعبر من النافذة أمامي مثل فراشة، من اليسار

إلى اليمين.

بعد القهوة، أكلت لبنًا، وبعد ذلك، صار يبدو كل

شيء فارغًا.

اعتراف صغير:

فكرت في أمي عندما أكلت اللبن. هل أمي قلقة عليّ
وأنا أسكن قرب الحرب؟

رغم كل شيء، شعور بالراحة غير منطقي.

كل ما يشغلني هو متى سيبعث إليّ برسالة ليطمئن
عليّ في هذا الوضع الذي لم يُسمّه أحد بعد حربًا!

وأمس، بعث إليّ برسالة. رسالة لا يمكن أن تجيب
رغبتي أكثر مما هي. بعد ذلك، شعرت أن الوضع خطير.
قلقه عليّ جعلني قلقة.

قبل أيام، بعدما انتهيت من مرضي، خرجت. مشيت
من بيتي عبر السوق كالعادة، دون أن تكون أي عادة.
السوق كان مظلماً وفارغاً، رغم أن عشرات المصلين
مشوا فيه. كلهم مشوا في الاتجاه ذاته وأنا معهم. كلهم
حزينون.

صار الحزن مادة، شيئاً يشبه أكياساً بلاستيكية مليئة
تُرِكَت في طريق السوق.

وأنا أمشي، كان قلبي يؤلمني وصدري. جسمي كان
يمشي وكله صحو بانتظار ربما رصاصة ستأتي بشكل
مفاجئ إلينا، إليّ، إلى الصمت.

لم أكن خائفة إن كانت ستأتي. كنت أنتظرها. جسمي
كان ينتظرها فقط.

كانت رغبة في أن تأتي وانتهى.

أكملت طريقي.

في الطريق، كان يقف أولاد صغار يرمون الحجارة ويتسمون للجنود. والجنود هناك، خلف الأشجار والسياح وأكياس الرمل والباطون وواقى الرصاص، مختبئون.

وفي الحافلة، كان الناس مثل أمم شاشة التلفزيون عندما كانت أمي تشاهد أحياناً المصارعة وتحاول تنبيه المصارع إلى ضربة من الجانب، لكن لا أحد يسمعها، لأنهم داخل التلفزيون، لأنهم خارج الحافلة، واقفين بعضهم إلى جانب بعض، وواحد على الأقل يمشي حالماً.

وأنا، في كل هذا، أنتظر رسالة منه، أو فراشة حتى لا أفكر به، وعندما تصل، أذرف دمعين بالضبط ثم أنام من دون فائدة، إذ أصحو مبكراً، حزينة، كأن النوم لم يكن قط بين تلك الليلة وذلك الصباح.

٢٠٠٠/١٠/١٧

أشخاص يموتون، يُصابون، يحزنون، يكون، ومن أمام التلفزيون، كل شيء يبدو نظيفاً وبعيداً، وليس أطول من دقيقتين وأربعين ثانية.

وفوق كل هذا، غروب جميل للشمس من فوق بيت
جالا بعد قصف، وغروب رائع بين غيوم قبل المطر، ثم
قوس قزح على عالم أصفر مزدحم بسيارات تقف منذ
أجيال أمام حاجز لن يُسمَح لها بالعبور منه. ...

وفراشة بيضاء تطير على حدود مستوطنة إيتمار حيث
وقف مستوطن وأطلق النار على جاني زيتون.

أمس، شعرت بألم شديد في عظامي لأول مرة. وبسبب
الألم في الجسد، منحت لعينيَّ تصرّيحًا بالعمل.

٢٠٠٠/١٠/٢٠

على الأقل ثلاث مروحيات تحوم في المنطقة. صوتها
يتقدم وتراجع من خلف المخدة. أحاول متابعة الإيقاع
حتى أعتاده وأنام، منذ ساعة وثلث.

حتى لا أستطيع طردها. ذات يوم، لم أستطع طرد
العصفور ذا الصوت الرديء.

٢٠٠٠/١٠/٢٧

صارت أصوات المروحيات طقسًا دينيًا يزاحم أجراس
كنيسة السريان وخطبة الجمعة من الأقصى.

٢٠٠٠/١٠/٣٠

أعتقد أن الفراشات أخلت المنطقة أمام المروحيات.
لقد سئمت بحثي المتواصل، لم أسأم البحث،
بل سئمت نفسي. كل ما أريده هو أن أخلع عني حياتي
وأذهب.

عمومًا، أكاد أختنق من كل الذكريات، من كل الألم
والحزن، من دخان السيارات.

الدفء الوحيد، الذي يأتيني هذه الأيام، هو من
الهواء الخارج من أكروست السيارات العابرة.

٢٠٠٠/١٢/١٨

مروحيات في يوم غير جمعة.

٢٠٠٠/١٢/٢٠

كما يعلنون الآن في نشرة الأحوال الجوية أن الطقس
جميل، دون أن يلقوا بأنظارهم خارج النافذة، كما هو
عندما يعلن آخرون أن الحياة جميلة.

مهم أيضًا ذكر أنه اليوم صباحًا مرت فراشة من نافذة
بיתי. أول فراشة منذ وقت طويل. لونها أصفر.

وزيادة على ذلك، على انخفاض أسعار الأسهم في

البورصة، وارتفاع سعر الدولار، قتل إسرائيليان فتي فلسطينيًا، ١٨ عامًا، من قرية اسمها عبود.

سوف أبحث عن مكان هذه القرية في الخارطة.

١٨ عامًا.

خسر حقه في الاقتراع وفي تناول المشروبات الروحية.
وفي الحياة.

٢٠٠٠/١٢/٢٣

بينما ينشغل الراكبون، ومعهم السائق، في حساب
باقي ما دفعوا، أنت ميت لأول يوم.

٢٠٠٠/١٢/٢٤

حلمت عنه هذه الليلة (الميت من القطعة السابقة).
أخذني من ذراعي وقال إنه توجد فراشات يريد أن
يريني إياها.

سحبني إلى أمام نافذة مفتوحة، يبدو منها غصن
بلا أوراق، تتعلق عليه بكثافة نقاط أو خلايا بنية بشعة،
تزايد في كل لحظة بشكل مرضي مخيف، مثل سرطان.
ربما أذهب للمشي ببطء يلائم إحباطي.

القدس، ربيع ٢٠٠١

فطر يذبل في ثلاجتي

في الشارع، هبت ريح قد لَوَّنْها دخان السيارات لتوه بالأسود، تحمل من حين إلى آخر إما منديلًا ورقيًا وإما قطعة من جريدة قديمة. كان هنالك أيضًا ضوء يلاحقهما في تنقلهما الموسيقي. الوقت عصر. الوقت جميل، إلى درجة قد يفقد المرء صوابه معها. وبدافع من هذا الإحساس، تركت الشارع، شارع صلاح الدين، دون أي سيطرة ولا إدراك لما أقوم به، دخلت إلى «السمان» - حانوت الخضار، واشتريت سلة فطر دون لحظة تردد. قطعة كبيرة واثنتان صغيرتان أخرجتها من محفظتي التي بدأت تتمزق رغم قلة الاستعمال، وسلمتها للبائع، لأتسلم نهائيًا وإلى الأبد سلة الفطر. وضعتها في حقيبتي التي بدأت تتمزق «٢»، فوق الكتب والأوراق والقلم، وعدت إلى شارع صلاح الدين الذي كان لا يزال ينتظر كعادته خارج الحانوت. حان الوقت للتفكير ولمعاقبة نفسي. ولماذا الهبل؟ ما حاجتي بفطر؟ لعنت نفسي بغير جهد، إلى أن وصلت إلى البيت. المحاولة الأولى للتخلص من الفطر: «ن» صديقة. أعرفها منذ ربما سبع سنوات. قديمة. و«ن» تعزمي كل أسبوع منذ سبع سنوات على

الغداء أو العشاء. مرة عزمتهما على الإفطار. مرة واحدة فقط. «ن» قبلت دعوتي على العشاء وقالت: «أوووه!» عندما عرفت أن الوجبة ستكون باسطة بصلصة الكريم والفطر. في مساء ليلة قبل اليوم الموعد، صار الطقس باردًا جدًا، وللبرد قدرة عظيمة على جعل المرء يكره نفسه، وكلما أكثر بردًا أكثر كرهًا، بشدة. لم أستطع تلك الليلة لشدة الكره، لكنني اقتربت من النوم عند ساعات الفجر، على الأذان. ذلك المؤذن الذي لم أعرفه قط، وقد يكون كاسيت فقط، كان إلى الأبد، في هذه الساعات العصيبة من الأرق، قصة ما قبل النوم المنتظر. حمل الصوت الهادئ خدرًا يشبه نومًا متقطعًا ومؤلمًا، إذ أعود وأصحو على البرد في كل لحظة. أخيرًا، استسلمت للصحو مع قرار إنهاء لعبة الغزل هذه مع رغبة النوم. كان الألم يملأ كل عظامي ونفسي. اتصلت بـ«ن» واعتذرت لها. ردت بدفء: «حبيبتى». «غداً». «غداً».

المحاولة الثانية للتخلص من الفطر: غداً، اتصلت بـ«ن»، ولكنها لم تكن في البيت. تركت لها خبرًا أنني بانتظارها على العشاء. المحاولة الثالثة للتخلص من الفطر: عاد البرد يقل تدريجيًا، وكذلك زرقعة السماء. «ش» و«ب» يحب أحدهما الآخر منذ أربع سنوات، ولا أدري من يحب الآخر أكثر، «ش» أم «ب». تعرفت على «ش» و«ب». «ش» و«ب» وأنا قلنا إننا سنعلن أن عام

٢٠٠١ هو عام «بلا خيانة». ردت «ب» بحزن وهي تنقل عينيها مني إلى «ش»: «لا حاجة إلى الرهان. أنا سأفوز على أي حال». بعد هذا الرد، شعرت بالقرب من «ب». أما قربي من «ش» فقد حدث قبل أيام. قال لي بسعادة. اتصل بـ«ب» ليخبرها عن دعوة العشاء. باستا بصلصة الكريم والفطر. ردود فعله على غير المسموع لي أوضحت لي كم «ب» لا ترغب بذلك ولا حتى بسماع اسمي على لسان «ش». ليت أن إحساسها بفوزها هذا العام بالرهان ليس هو الدافع لكل هذا. المحاولة الرابعة للتخلص من الفطر: لقد مضت ستة أيام على الفطر في الثلجة، وقد لاحظت أنه بدأ يكتسب قليلاً في بعض المناطق الخفية لوناً أسود. «إ» صديق عزيز، من أعز الأصدقاء، منذ تسع سنوات أو عشر، رغم كل الصعوبات الجمة في طريقه. قلت له: «هيه «إ»، هل تعرف أنني أعرف أن أطبخ؟» انفجر ضاحكاً. قلت له: «باستا بصلصة الكريم والفطر». قال: «لا حاجة». وانتقل إلى موضوع آخر. المحاولة الخامسة للتخلص من الفطر: تعرفت على «د» قبل عدة أيام. «د». «د». «د». «د». حتى لم أطقه. وعندما اتصل ليدعوني على العشاء، شعرت أسوأ من عندما يجب عليّ مراجعة مكتب الضريبة. حين تناولنا العشاء معاً في تلك المرة، أوشكت أن انفجر لشدة الملل. «ر» و«ي» عزيزان آخران. «ر» لا تحب «ي» ولا «ي» يحبها، ولكن لا أحد

منا يوافق على ألا نلتقي ثلاثتنا. ببساطة، لا تقترب إلينا المتعة إن لم نكن الثلاثة. بشكل غير مباشر، حتى تقل الحدة بين «ر» و«ي»، اقترح كل منا إضافة رابع. تحليل «ي» حتى لا يسمع «ر» أكثر. تحليل «ر» أنها ستستطيع أن تتحدث بعمق أخيرًا إن ابتعد «ي» عنها بضعة أمتار. قلت لها عن «د»، فصرنا نتخيل المنظر على شاطئ البحر، حيث نمشي معًا، و«ي» و«د» أمامنا. وهكذا، صار فجأة مكان لـ«د» في هذا العالم، مكان ضروري. وعندما غاب عنه، انتابني شعور رهيب بالاشتياق إليه. ثم رأيته يمد يده من تحت الطاولة إلى ساق فتاة كانت تجلس أمامي. عندها، امتلأت روجي بالرغبة، وأحسست العوارض الجانبية لبدايات الحب. كان في تلك الحركة جمال الإيروتيكا المرئية في لمحة بصر، ورجل قدر سيطلق العنان لخاصتي. انتابني أيضًا فهم لسؤال يطرحه أستاذ التاريخ «ع» منذ الصف الرابع «ب»، فانتقلت العدوى إلينا نحن تلاميذه بشكل طبيعي: «ما هو مثير للدهشة يا أولاد أن الحروب لا تنتهي أبدًا رغم كل العذابات التي تمر بها البشرية خلالها، والتي تعلمتم لتوكم كم هي ضارة. ضارية. أنتم أنفسكم يا أولاد ستكونون ذات يوم جزءًا من هذه الحروب، بل ستصنعونها». بالتأكيد «م» و«أ» و«ن» في آخر طاولة لم يكتروا للسؤال أكثر مما لكش الذباب الذي لم يكل محاولته للهبوط على وجوههم.

سألت نفسي وأنا أبتسم ليد «د» المتسربة إلى تلك الفتاة من تحت الطاولة، والحب يغمرني: كيف يا أولاد الحب لا ينتهي أبدًا رغم كل العذابات التي نمر بها في كل مرة حب؟ في الليل، والساعة في طريقها إلى الواحدة صباحًا، بينما شع ضوء أبيض على قبة الصخرة، درت بظهري إلى الهاتف، واتصلت ب«د».

هل تريد أن نتناول العشاء معًا؟ متى؟ باستا بصلصة الكريم والفطر.

قبل أن أخلد إلى النوم، بدأت رحلة التردد. لا يمكن أن أحضر له العشاء مباشرة وفي الخلفية ذكرى العشاء من الحب السابق: معكرونة بصلصة الكريم والفطر. كان نومًا متقطعًا. أدعوه. لا. أدعوه. لا. ثم أنام وأصحو. أدعوه. لا. أدعوه. لا. لن. الطقس جميل في الخارج. السماء لا تزال زرقاء حتى بانعكاسها على الخزانة البنية. ذهبت إلى المطبخ، وفي الثلاجة، يزداد سواد الفطر. صنعت القهوة، وعدت إلى قبة الصخرة، التي ابيضت بعدما غطتها قطع ملابس من دورة الغسيل الأبيض من عند «ل» و«هـ» و«ن» ولا أدري ما اسم الزوج. الجيران في الساحة عملوا اليوم دورة ملون، أغطية السرير، و«ش»، من الجانب، بناطيل شقيقها، وقبلتي، دورة غسيل ملون عادي. نحن في الحارة، دون أن نعرف كل الأسماء، نعرف ألوان كل الملابس الداخلية لكل واحد ومقاساتها. رغم

كل الغسيل الذي يحيطني من كل جانب، لا حل. لا أدري
ماذا سأفعل بالنسبة إلى الفطر المستمر في الاسوداد مع
كل لحظة عابرة من أمام باب الثلاجة، لكنني قررت،
بينما كان رأسي يكاد يلامس الشرشف المنشور خلفي،
ألا أشتري فطرًا أكثر في حياتي دون أن يكون لذلك سبب
مباشر وواضح.

القدس، صيف ٢٠٠١

نعي أستاذ فاضل من حي الأرمن، شارع أرا راط رقم ١٩

لا، لم تكن تلك حركة تقطيب جبين، بل إنها لم تكن حركة بالمرة، إنما جبين أم كيفورك الطبيعي يتفق مع كل ما يمكن لها أن تقوله. كذلك، ارتفاع رأسها، وأنفها، وشفتها العليا، كانت هي أيضًا تبشر بإحساسها الأبدي بالتقزز. بعد أن قرعت بابي لأول مرة، هُرع أوهان، الجار من البيت المقابل، يسألني:

- ماذا كانت تريد منك هذه الكلبة؟

المرة الثانية، التي فعلت بها ذلك، كانت عندما كانت مارة من أمام بيتي وهطلت فوق رأسها نقطة مطر، فجاءت تُحذّرني حتى لا يبتل غسيل المنشور على الحبل. أما في المرة الثالثة فقد كان الطقس جميلًا. كنت جالسة في الخارج أحرق في قضبان البوابة، حين انبعث في الحوش صوت خطوات عرفت أنها لأم كيفورك. ولأننا لم نكن نتبادل الحديث بشكل خاص، أغلقت جفني كي أوفر على كلتي عناء التحية والاشمئزاز. وهكذا، عبرت خطواتها من أذني اليمنى باتجاه اليسرى فوق الممر

المؤدي إلى نهاية الحوش، مبتعدة عني. ثم، ربما بعد أربع خطوات، وكنت قد فتحت عيني بعد الثالثة، عدت أسمعها تقترب مني ثانية. فجأة، قالت أم كيفورك: «مرحبًا». ثم اقتربت أكثر. ولم أفهم. سألتني إن كنت أعرف، فأجبت لا. قالت:

- لقد مات الأستاذ.

بقيت جامدة في مكاني أرقب وجهها، أمسح البعد بين عينيها وحاجبيها. وبعد شيء من الصمت، أضافت: وذلك الذي عندي، ماذا تعتقدين؟ سيموت أيضًا.

كانت تقصد زوجها. ثم اغرورقت عيناها بالدموع وارتجفتا حزنًا لعدة لحظات، بينما أنا تمتمت، فيما إحساس غريب يعصف بي، بأنني سأبعث بباقة ورد. أعقبت هي بأنه لا فائدة من الورد، إذ يجف، أفضل التبرع بثمر الباقة للنادي الذي تولى موضوع الدفن. أجل، فلا يوجد أقارب للأستاذ. أيضًا من يرغب بتقديم التعازي عليه التوجه إلى مقر النادي، حيث سيقدمون القهوة والكعك على روح الميت. ولقد صنعت الكعك سالي. هي مشهورة في الحوش بإتقانها لصنع الحلويات. ثم استغربت أم كيفورك كيف أنني لم أنتبه إلى التابوت حين أحضروه في الصباح. لقد تُوفيَّ أمس.

بعدها، استدارت وتركنتني وحدي في الساحة. ولقد كانت الشمس حارة جدًا، فدخلت إلى البيت عائدة إلى فراشي الذي تركته قبل قليل.



أم كيفورك تسكن إلى يساري، وأوهان يسكن قبالي، تفصل بيننا ساحة يخرج منها ممر يقود إلى مؤخرة الحوش إلى بيت سالي وبيت كيران، وبينهما، بيت الأستاذ. في حين أمام أبواب هؤلاء الثلاثة توجد ساحة لا يزيد عرضها على متر ونصف، لأن سالي أضافت غرفة إلى البيت ولهطت بعض الأمتار منها. وكيران لم تكن لتتحمل ذلك. لم تعد تستطيع. هي أولاً مريضة بالأزمة، والغبرة، التي أثارته عملية البناء تلك، قتلتها تمامًا. زد على ذلك أن المدخل إلى بيتها صار ضيقًا جدًا، وخانقًا. أما سالي، التي كانت حاملاً، صحيح بلا تخطيط ولكنها لن تجهض، فباتت بحاجة إلى غرفة ولو صغيرة لمولودها الجديد الثالث. فانبثق شجار عظيم بين الجارتين، فقد خلاله زوج سالي أعصابه وضرب شقيق كيران.

كانت تلك النهاية. ذلك فوق الحد.

ولقد مضى أكثر من عام ونصف دون أن تتحدث الواحدة مع الأخرى. عندما يُفَتَح باب إحداهما، يُغَلَق باب الأخرى بهدوء. أما حين اقترح أوهان ذات عصر

على كيران أن يُصلح بين الأطراف، بكت هذه، ولم يُفتح الموضوع ثانية بعد ذلك اليوم. لكن ما إن انتهت الجنازة حتى جاء أوهان يزف إليّ خبر مصالحتهما بأعقاب هذه المناسبة، مع أنها مناسبة سيئة. ثم أخبرني كيف أنه ذهب في الساعة الحادية عشرة ليلاً إلى الجريدة لإنزال خبر وفاة الأستاذ حتى يعلم الجميع بموته، إذ إن النادي كان مقفلاً ساعتها، ولم يكن قد انتدبه أحد بعد لإتمام مراسم الدفن.

- ماذا؟ أذهبت إلى الجريدة في وقت كهذا؟

- حق الجار على الجار. كنت في البيجاما عندما سمعت بالخبر، فغيرتها وذهبت. لكنني بقيت في حذاء البيت.

- إذن يوجد الآن إعلان عن موت الأستاذ في الجريدة. كم هو لطيف!

- كيف عرفت أنت؟ من خبركِ؟

- أم كيفورك.

فتلمّظ. وتحولت حركة فمه هذه إلى تموج صار يزداد بمرور الوقت، ثم بعث بيديه كلّاً إلى جيب، حيث راحتا تتموجان بدورهما هناك. وبتناسق وتزامن شديد، أخرج من أحد جيوبه منديلاً ورقياً وردي اللون، قرّبه من فمه، وبصق، ثم طواه بسرعة وأعادته إلى جيبه الأيمن.

- أما زلتما لا تتحدثان معًا؟

أجاب:

- ما لي بها؟ سلّم أحدنا على الآخر في الجنازة.

- يا الله منيح!

لم يُجب.

- معي هي لطيفة.

- صدقيني، هذه المرأة وسخة. كلبة. لقد سقطت
من عيني تمامًا.

- ولكن ما الذي حدث بينكما؟ طبعًا إن كان مسموحًا
لي أن أسأل.

هز أوهان رأسه بأسى كما لو أنه متعب من مجرد
استرجاع سلسلة أحداث الماضي تلك، وقال بصوت
تشوبه ذكرى ألم قديم:

- يا شيخه، كل مرة كانت تراني أنظف الدرج تأتي
وتنفض السجاد فوقه، غير عابئة لا بتنظيفي ولا
بالدرج. لم تتركني أفرح برؤيته نظيفًا حتى آخر
النهار ولو مرة. هي الكلبة لديها «وردة» تنظف لها،
وأنا؟

نعم، أوهان رجل وحداني، ويستطيع المرء رؤية ذلك من فتحة باب بيته، من كل تلك الألعاب والدمى المجمعة في أكياس نايلون وموضوعة فوق الخزانة، منذ أن هربت زوجته إلى الخارج بصحبة ابنتهما الوحيدة، كما أسرت إليّ كيران بصوت خفيض ذات صباح.

ثم أضاف:

- لتنصرف ...

أخفضت عينيّ باتجاه أرضية الساحة، واضعة ابتسامة خفيفة على فمي، وساد الصمت في الحي كله. حتى وردة لا تعلق ضوءاًؤها من داخل مطبخ أم كيفورك اليوم.



وردة. تردد خلفه الأشعار بينما هي تجلي، وأنا أجلي، وشباك أم كيفورك المصنوع من الزجاج الغامق اللون يحجبهما عني، فلا أنجح إلا بسماع صوتيهما. ثم يضحك كلاهما لأن وردة لا تعرف «من قائل هذه الأبيات؟» بينما هو، الأستاذ، يعرف.

وهي، وردة، أُمِّيَّة في ريعان شبابها، تجتمع بالأستاذ يومياً في مطبخ أم كيفورك، تنشد معه بصوت عالٍ بينما تنظف: «ألف. ألف. باء. باء. ألف باء. ألف باء. أب. باء. باء. ألف. ألف. باء. باء. باء ألف باء. باب.»

هكذا، حرفاً تلو الآخر، راحت الأحرف تدوي في جي الأرمن حتى قدوم الظهيرة، حين تكون وردة قد انتهت من ورديتها، فيأتي أخيراً من غرفة جلوس أم كيفورك عبر باب مطبخها فنافذته، مخترقاً نافذة مطبخي فالممر، ثم إلى غرفة الجلوس ليصب في أذنيّ، صوت باب بيت أم كيفورك الذي طرقاه خلفهما. خطاها هي تبتعد مغادرة الحي، بينما هو يمضي إلى بيته في خطى زاحفة أشبه ما تكون بحف قطعة من الخشب.



لا أدري كم من الوقت مضى حين جاءت كيران تقرع باب بيتي، فتظاهرت بالنوم. غير أنها راحت تنادي اسمي بإصرار من خلف الباب. وبعد وقت، صار لا بد لي من أن أرد. دخلت وجلست، متعبة منهكة، وأنا عدت إلى فراشي. قلت لها إنني لا أصدق أن الأستاذ مات، فوافقتني. ثم سألتها إن كانت تحب أن تشرب قهوة، فردت بحماسة:

- لا لا، دخيلك! منذ الصبح وأنا أشرب قهوة على روح الميت.

- هل حضر الكثير إلى الجنازة؟

- ما يقارب الثلاثمئة. وكل الحارة كانت.

- أنا آسفة لأنني لم أتمكن من الحضور. ولكن تعرفين

... لقد خفت.

فضحكت بالرغم منها. بسخرية؟ غير أنها قالت إنها تتفهم.

- سمعت أن سالي سلّمت عليك في الجنازة.

- سلّمت. الله يسلمها!

- وتنهدت قاذفة بما تجمّع لديها من سخرية إلى هواء الغرفة، ثم أكملت:

- والله.. والله.. ماذا أقول لك؟ طوال حياتي وأنا أعيش باحترام، لم أرفع صوتي على أحد ولم يرفع أحد صوته عليّ.

- كلنا نعرف بأن الحق عليها، وهي نفسها تعترف بذلك. لكن يجب أن نسامح أحيانًا. ما حدث حدث.

- أتعرفين؟ في الصباح، حين أحضروا التابوت لأخذ الأستاذ، والله بقوا أكثر من ساعة يحاولون إدخاله إلى البيت. ماذا تعتقدين؟ لقد صار الممر ضيقًا جدًّا، وخانقًا.

ثم أضافت مستفهمة:

- هل قال الله ذلك؟ ألا يعرفوا كيف يُدخلون تابوتًا من أجل أخذ ميت؟

أجل، حزين. ثم ماذا تعتقد سالي نفسها؟ ولماذا؟
بسبب شعرها الطويل؟

إنها تكره سالي. وصوت صفق الأبواب القادم من
داخل بيتها دون مراعاة لا لجار ولا لخرا يقلب نفسيته
رأسًا على عقب. يحبطها إلى أقصى درجة. وغضضت أنا
بصري دون أن أبتسم.



عندما نلوذ بالصمت، تروح كيران تقتله بصوت
أنفاسها غير المتشابهة، كما لو أن كل نفس يشير إلى فكرة
أخرى. فجأة، رفعت رأسها باتجاهي، وقالت إنها تشعر
بألم في كتفها وعنقها، كان قد بدأ بعد أن وقعت عليها
شنطة أحد المسافرين عندما كانت في طريقها إلى عمان
في الصيف قبل الماضي. قمت أبحث عن مرهم بين
مجموعة أدويتي المتواضعة. وعندما وجدته، أسرع
هي بإنزال قميصها دون لمحة تردد. واضطربت أنا. أنا
شخصيًا ما كنت لأحس بمثل هذه الثقة معها. وضعت
بعضًا منه، المرهم، بلونه الشفاف على أصابعي، وقربت
يدي من عنقها، ثم أطبقته فوقه، فأذهلني ملمسه الناعم
الطري. لقد كانت بشرتها لا تمت بصلة إلى السبعين عامًا
التي تبلغها. وأخذت هي تتأوه، مطلقة صرخة أو اثنتين
مع كل حركة من يدي، بينما أنا راح الخجل يطفح عليّ إثر

هذه التأوهات. ثم قالت فجأة بصوت أحسست ذبذباته
سلفًا وهي تعبر من عنقها إلى يدي:

- إيبه على أيام زمان!

أخيرًا، ارتدت كيران قميصها، وأوصيتها بدوري بأن
تدفي جسمها جيدًا، حتى تترك. وصلتها إلى الخارج،
حيث وقفنا قليلًا هناك، أنا أقفز في مكاني لا لسبب، وهي
تلعب بيد البوابة. ولو تدعها وشأنها! ثم قالت قبل أن
تغلقها خلفها، وبروح عالية:

- كان الأستاذ محظوظًا. لم يتعذب ولم يُغلب أحدًا.
ولقد كان هنالك الكثير من الناس حوله. من
سيكون قربي حين أكبر أنا؟ أنا الآن قادرة، ولكن
كيف سأكون بعد عشرين عامًا؟ لا بنت ولا ولد.
كيف سأندبر؟ ومن سيعتني بي؟

- أنا سأعتني بك.

- يوووه.. هل ستتذكريني بعد عشرين عامًا؟

سأحاول على الأقل ملاحقة مكتب الشؤون الاجتماعية
من أجل توفير مساعدة لها، مثل وردة.

أغلقت الباب بالمفتاح، وعدت إلى فراشي. في
الطريق، عرجت على المطبخ، وغسلت يدي جيدًا حتى
أزيل عنهما رائحة المرهم الحريفة.



سالي إذن كانت آخر من زارني في ذلك اليوم.
كعادتها، بعد أن يخيم الليل، إذ تكون قد انتهت من
التنظيف والطبخ، ثم التنظيف مرة أخرى وتحميم الأولاد
وتنويمهم، تأتي لتغير جَوْاءَ عندي.

- الله يرحم الأستاذ.

- أجل.

قلت فقط لما يشوبني من حذر تجاه مثل هذه
المصطلحات الدينية، ثم قلت:

- على فكرة، مبروك الصلحة مع كيران.

فردت هي بطيبة بالغة:

- الله يبارك فيك.

- أنا حقًا سعيدة لحدوث ذلك أخيرًا.

- وأنا أيضًا. الذي حدث، حدث. انتهى. الله
يسامحها.

- كيران طيبة جدًا.

تنهدت سالي بالطبع متأهبة لشرح موقفها أمامي،
لآخر مرة أتأمل:

- أتعرفين؟ لا حظ لي بالمرة مع هؤلاء الجيران. والله
كيران هذه التي ترينها، كنت في كل عيد أم أحضر
لها باقة ورد، تمامًا كما أحضر لأمي. لكنها لئيمة
جدًا.

أنا متأكدة من أن سالي لطيفة مع الجميع. لقد كانت لطيفة حتى مع الأستاذ.

- دعيك من كل هذا. المهم الآن أنكما تصالحتما. يمكنك أن تكفي بإلقاء السلام عليها إن كنت لا تريد أي صلة معها. ذلك على أي حال أفضل من الجفاء التام وأنتما الباب بالباب.

- نعم.

- المهم ...

في الواقع، لم يكن هنالك أي شيء مهم. قلت ذلك لمجرد أنني بت أنتظر مغادرتها لي، فقد كنت، ولا أدري لماذا، متعبة جدًا. لكنها بادرت بموضوع جديد للحديث:

- لقد افتقدناك في الجنازة.

- نعم، لم أتمكن من الحضور. لكنني سأذهب لزيارة قبره.

- خبريني حين تودين القيام بذلك، فربما أنضم إليك.

يا الله! سالي هذه دائمًا تريد أن تأتي معي. ولتغيير الموضوع، سألت:

- ووردة؟

- وردة؟ يا حرام ... لقد حزنت كثيرًا، وبكت عليه.
لقد جاءت تعزي هي أيضًا.

- متى؟

- صباح موته.

إذن أنا كنت آخر من يعلم!

- يبدو أن كل واحد اعتمد على الثاني في أن يُعلمك.
أخيرًا، تململت وقامت. مع السلامة سالي. وبقيت
واقفة عند البوابة أتابع اختفاءها في عتمة الممر.



لا ريب بأنهما كانا يحبان بعضهما بعضًا، وردة
والأستاذ. لا يكاد صوتها الحاد واليافع يعلو من داخل
بيت أم كيفورك حتى تأتي خطاه الزاحفة فوق الممر، أشد
نشاطًا من عاداتها.

والآن لم أعد أتبيّن متى جاءت ولا متى ذهبت، أو إذا
ما أتت إلى العمل بالأساس، بينما الحي راقدًا في سكونه.

رام الله، ربيع ٢٠٠٤

مكتبة

t.me/soramnqraa

درس في رقص التانجو

ذات ليلة، وبينما كنت أقف قرب البار في مرقص للتانجو في باريس، تقدم نحوي رجل وسيم، دعاني للرقص معه، فhezزت رأسي بأن لا، أنا لا أعرف كيف أرقص التانجو. سألني : «من أين أنت؟» وأجبت.

ولحظة سمع الرد، كاد يأخذني بالأحضان، ثم باشر يحدثني بصوت اختلط فيه الارتباك واللهفة معًا بأنه تعرف منذ فترة إلى أروع امرأة في الكون. فلسطينية أيضًا. كان قد أقلها من المطار إلى الفندق، إذ إنه يعمل سائق لسيارة أجرة. امرأة ساحرة وناعمة، كادت تذيبه لحظة التقاها لشدة رهافتها. واصلت الاستماع إليه بسكون، فيما انفعاله الشديد بادٍ في كل حركة يأتي عليها. يدها تكمشان في الفراغ، وقدماه لم تعودا تماسان الأرض، حتى أنفاسه اضطربت. ثم شعرت بأن وجهي بات متعبًا من تلك الابتسامة التي وضعتها على فمي منذ أن بدأ حديثه عن تلك المرأة. فجأة، قفز إليّ وشدني إلى حلبة الرقص. لا، رجاء! لكنه قال إن التانجو سهل جدًا. سبع خطوات. وفيما أنا أتلفت حولي محرجة أتعثر بحذائي وأرتجف قليلًا، كان هو لا يبالي بأحد، إنما يفكر بها، يحاول

مراقبتها، وما أنا إلا وسيط روجي لا يعرف التانجو. ثم لم أعد أرغب بذلك أكثر، ووددت لو أترك المكان كله في الحال. «عليّ أن أذهب». قلتها وقد توقفت بشكل مفاجئ في منتصف الحلبة المكتظة بالراقصين والراقصات، كل واحد من بينهم يعرف أي مسار يسلك، عداي. عندها، صرخبأنه يجب ألا أتوقف هكذا!

لقد صرخ عليّ، وهو لتوه تعرف إليّ، فصرخت عليه، وقلت له إنني لا أريد أن أرقص، ولا أعرف كيف أرقص. إلا أنه عاد وطلب مني أن أصعد على قدميه. هو سيحملني فيما نحن نرقص إلى أن أستوعب الخطوات، ثم بدأ يعد هامسًا: «واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة». وتابعت عدّه ودوراننا في الحلقة دون أن أتفوه بكلمة.

ثم لا أدري لماذا وجدتني أسأله:

- هل كانت بينكما علاقة؟

فرد:

- علاقة رائعة. كنت أدور بها في أنحاء باريس، أشرح لها تارة عما نراه، وهي تحدثني تارة أخرى عن نفسها وعن بلدها. لقد عاشت حياة صعبة. كان بيننا الكثير من الأشياء المشتركة، فأنا أيضًا عشت حياة صعبة في الأرجنتين، ثم لاحقًا في فرنسا عقب

هجرتي. الحياة قاسية، كنا نقول ونحن ندور في
السيارة. وأشد ما كنت أحب هو حين تأتي ضحكتها
من المقعد الخلفي. لقد كانت في غاية الرقة.
وعلّقت أنا: أنت محظوظ جدًا.

ثم أضفت: ماذا تعمل هذه المرأة في حياتها حين لا
تجلس في المقعد الخلفي لسيارتك؟

رد هو بالقوة ذاتها من الانفعال والسعادة التي تكونت
لديه منذ بدأ الحديث عنها، فيما لا يزال محافظاً على
البعد اللازم بين جسمينا وفق قوانين التانجو:

- إنها شاعرة.

- ما اسمها؟

- طوقان. فدوى طوقان.

- آه ه ه ه ه ه!

توقف فجأة في منتصف حلبة الرقص، وسأل مشدوهاً:

- أتعرفينها؟



أجل، أنا أعرف فدوى طوقان.

كانت تلك أول وظيفة جدية أتسلمها. جدية بمعنى
أنه كان لي غرفة ومكتب في نهاية النهار أضع قدمي عليه

مثل المحققين الخاصين في الأفلام، وأدخن. ولديّ جهاز كمبيوتر وكرسياً، سألتني السكرتيرة إن كان مريحاً، وأيضاً أصيصاً فيه نبتة عصا الراعي، أهدتني إياه المؤسسة، التي بدأت بالعمل لديها، بمناسبة انضمامي إلى الطاقم. مسكينة تلك النبتة وكيف أخذت تجف مع الأيام!

كانت المؤسسة ثقافية تنظم برنامجاً شهرياً من النشاطات الفنية المختلفة التي كنا نعمل عليها، السكرتيرة والمراسل وأنا، فالمديرة كانت في إجازة ولادة، وكنا نحاول قدر الإمكان عدم إزعاجها، لذلك لم نتصل بها في ذلك اليوم لنسألها رأيها في المعضلة. كنا نجهز للعرض الافتتاحي لفيلم «فدوى، حكاية شاعرة» لليانا بدر. عادة، يترتب على مثل هذه الأنشطة بضعة أمور: بيان صحفي، وإعلان في جريدة، ودعوات في الإيميل والفاكس، وملصقات في مقاهي البلد، وأخيراً، شراء عصير وبسكويت أو معمول. ولقد أتممنا كل هذه الأمور على خير وجه، عدا مسألة واحدة: فدوى طوقان. يجب إحضارها من نابلس إلى رام الله للمشاركة في حفل الافتتاح.

بالطبع جمهور المشاهدين في آخر النهار، حين يحل موعد العرض ويجدونها أنحاضرة معهم، سيسعدهم ذلك كثيراً، لكنهم أبداً لن يعرفوا مدى المشقات التي كابدناها، السكرتيرة والمراسل وأنا، في سبيل ذلك.

فدوى طوقان، من أهم شعراء فلسطين. هذا هو رقم هاتفها مسجل في دفتر العناوين المفتوح أمامنا نحن الثلاثة، السكرتيرة والمراسل وأنا، تحت حرف الفاء، واجمين، نفكر في كيفية إحضارها. أي وسيلة مواصلات هي التي تليق بها؟ أول فكرة يمكنها أن تخطر على البال هي طلب سيارة أجرة. نتصل بأحد المكاتب نعطيهم عنوانها، ثم نتصل بها ونخبرها بأنه ستكون هنالك سيارة أجرة في انتظارها أمام باب بيتها في ساعة كذا. ورحنا نتخيل الموقف. سيارة سبع ركاب تنطلق وداخلها السائق يستمع إلى موسيقى صاخبة، وفدوى تكاد تطير من النوافذ مع كل التواء من التواءات الشارع الحادة المألوفة من خط رام الله- نابلس.

احتمال آخر هو أن أذهب أنا وأحضرها في سيارتي. لكن أن تسافر شاعرة فلسطين في سيارة فولكسفاجن قديمة صفراء، تصل سرعتها القصوى على الطريق السريع دون أي التواءات أو طلعات إلى ٨٠ كيلومترًا في الساعة، لا بد أن يكون أمرًا لا يُعقل.

ماذا عن استئجار سيارة يقودها المراسل بينما أنا أبقى هنا حتى أُشرف على سير الأمور؟ المراسل؟ نظرت السكرتيرة إليّ وأنا إليها وإلى المراسل والمراسل إليّ وإليها، ثم قلنا ربما لا. المراسل لطيف جدًّا، لكنه ... أيضًا في ماذا يمكنه أن يتحدث معها؟

عاد الصمت يستوطن أجواء الغرفة، فيما السجائر
تشتعل مواسية مزاجنا المتكدر.

فجأة، فتح المراسل عينيه الواسعتين وقال إنه
وجدها!



توقفت ذلك المساء، في الساعة الخامسة تقريبًا،
قبل العرض بساعتين، سيارة سوداء فخمة أمام بوابة
المؤسسة. خرج منها شاب وسيم، اتجه إلى الباب
الخلفي، فتحه، وظهرت شاعرة فلسطين. أغلق الباب
خلفها، ثم ضغط على زر في علبة صغيرة معلقة بالمفتاح
الذي بيده، وأقفلها. وقد نتج عن ذلك صوت هببط له
قلوبنا، نحن الثلاثة، السكرتيرة والمراسل وأنا، بينما كنا
واقفين نرقبهما من الشرفة.

فجأة، رن الهاتف. محادثة لي، وضرورة جدًا. الآن يا
الله؟ أخذت السماعه حتى أعتذر للمتصل، لكن الاعتذار
استغرق أكثر من دقيقتين. وحين خرجت إلى البهو،
لم أجد أحدًا. كانوا قد اتجهوا جميعًا إلى الغرفة التي
أعدناها لضيافتها.

كانت تجلس على المقعد الخطأ، فهو صغير، وساقاها
مثنيتان ومدفوعتان تحته، بينما استلقت في حضنها،
جنبًا إلى جنب، كفأها. ثم رأيتهما تفترقان إحداهما عن

الأخرى وتتجه اليمنى مباشرة إليّ. تصافحنا. وتأكدت تمامًا أن رأسي بات مرفوعًا حين اصطدم نظري بوجهها. وارتبكت. سألتها كيف كانت الطريق، فالتفتت إلى السائق وقد انفرجت الآن شفتاها بابتسامة سرعان ما تحولت إلى قهقهة حلوة، قائلة إن السائق جعلها رحلة سهلة وموفقة، هو خفيف الظل جدًّا، وضحك السائق والسكرتيرة والمراسل. كانوا جميعًا سعداء ويضحكون، بينما أنا ترتسم على شفتي أقل الابتسامات ذكاءً.

سألتها إن كانت تفضل أن تشرب قهوة أم شايًا، واختارت الشاي. وضعت النعناع في الكأس التي ملأتها للتو بالماء الساخن. عندها، راح فجأة كل شيء يثير الحزن فيّ: النعناع والماء الساخن والكأس والسكر والملعقة وشاي الليبتون وحقيقة أنها تبلغ ثمانين عامًا تعيش وحدها وأنها لا تخرج إلا نادرًا.

عدت إلى الغرفة حيث كانوا جميعًا ما زالوا يضحكون، وكثيرًا ما تدمع عينا السكرتيرة حين تضحك بشدة. وضعت الشاي أمامها، ثم انصرفت كليًا إلى غربتي، أنقل عينيّ بينهم وبين قطعة الكرتون الصفراء الصغيرة التي تدلت من كيس الشاي إلى خارج الكأس، أقرأ على التوالي «ليبتون ليبتون ليبتون».



تصبح بعد مضي أول خمس دقائق منها أشبه بجحيم
دانتي. أحياناً، كان بعض الأولاد ممن يُعرفون بأنهم لا
يعرفون كلمة واحدة من القصيدة، ولا حتى عنوانها ولا
من نظمها، يبدؤون بالبكاء حتى قبل أن يتحوّل المُعلِّم
أحمد إليهم، حتى يذيقهم معنى عدم احترام الشعر.



قالت فدوى طوقان يومها بأنه ستقرأ ثلاث قصائد
كتبتها مؤخراً.

كانت واقفة في منتصف الحلقة، يحيط بها الجمهور
المحشور في القاعة بكثافة، في حين أحطنا، السكرتيرة
والمراسل والسائق وأنا، بأحد العواميد في المؤخرة. ولقد
منحني الثلاثة شرف الالتقاء عليه، بينما وقفوا هم حوله
مكتوفي الأيدي.

وبدأت فدوى طوقان تقرأ:

واسيت قلبي الغويّ

وقلت يا قلب حسبك

لا تأسَ إن مات حبك

اضحك على الحب واخذع

بالضحك حزناً عصيّ



لقد توفيت فدوى طوقان في نهاية العام الماضي،
حيث كان المعلم أحمد سيُعلمنا بأنه لدينا حتى الدرس
القادم لنحفظ قصيدتها.

رام الله، ربيع ٢٠٠٤

لون الرماد الذي في عيني جدتي

جدتي، واسمها نوبا، تُوفيت في أواخر الثمانينيات
أعتقد، ولم يكن موتها بحدث ذي أهمية بالنسبة إلى
العائلة. وصلني الخبر بينما كنت في المدرسة، وكان
بمنزلة استجابة إلهية لرجاء رحت أردده منذ سنوات
وهو إنقاذي من واحدة على الأقل من تلك الظهيرات
المدرسية التي لا تُحصى، المفعمة بملل يتكرر بلا كلل كل
يوم مع حلول الحصّة الرابعة. عدت إلى البيت، ووجدت
أبي جالسًا وحده في غرفة الجلوس. سألته إن كان قد
عرف بخبر وفاة أمه، فرد بأنه يعرف، ولم أستطع كبح
فضولي، فسألته إن كان حزينًا. رد برفع حاجبيه اللذين
بقيا مشدودين للحظات قبل أن يعيدهما إلى موضعهما
السابق.

والدتي لم تكن بالبيت، ولا أعرف إن كانت قد عرفت
بالخبر، فربما كانت ستنضم إلى الجنازة، التي لا أعتقد أن
عدد حضورها سيزيد كثيرًا على العشرين. ربما اثنا عشر
أو ثمانية.

عامّة، جدتي لم تكن تتحدث مع أحد، وعامة، لم يكن
أحد يتحدث معها، كما لم تكن تحب أحدًا، ولا أعتقد

أن أحداً كان يحبها. حاولت أنا شخصياً أن أمنحها بعض الحب والاهتمام، لكنني توقفت بعدما زجرتني ذات عصر ربيعي لطيف بنظرة طويلة باردة.

قبل أن تموت بيوم واحد، وكنت في طريقي إلى المدرسة، عرجت على بيت عمتي حتى أقول لها صباح الخير، فوجدت جدتي، التي انتقلت إلى السكن هناك قبل بضع سنوات، جالسة وحدها في غرفة الجلوس. قلت لها: «صباح الخير». ولكنها لم ترد. خرجت وربما شيء من الحزن يرافقني.

قد أكون قد عفوت عن أنها لم تمنحني بعض النقود حينما كنت طفلة كما كانت تفعل كل جدات من أعرف من أطفال، بل تنازلت حتى عن الأمل في أن تمنحني ولو قطعة صغيرة من الحلوى التي طالما أنتظرها بترقب كلما مدت يدها إلى جيب ثوبها التي ما كانت لتخرج إلا حاملة مندليها القدر.

تخليت أيضاً أن تحكي لي قصة كتلك التي تعرف كيف تحكيها الجدات فقط. ولكن ألا ترد على تحية الصباح؟

إنما يمكن للمرء أن يحزن أن تكون جدته أو جدتها بغیضة، مليئة بالكراهية إلى هذه الدرجة. ماتت في اليوم التالي، وكان آخر ما رأيته منها عينيها اللتين بلون الرماد مفتوحتين على اتساعهما، تنظران إليّ مباشرة، تدفعاني بقوة نحو الباب كي أخرج.

بعد وفاتها بيومين، ذهبت للمبيت عند عمتي حتى أونسها في وحدتها بعد أن ماتت جدتي. كانتا تنامان في الغرفة نفسها، تفصل بين سريريها طاولة صغيرة، وقد خلدنا إلى النوم، عمتي في سريرها وأنا في سرير جدتي الذي لم أكن أجروء على الاقتراب منه حتى قبل يومين فقط.

وبينما العتمة تغشي الغرفة، قالت عمتي فجأة إنها حزينة على وفاة أمها. سألتها كيف وجدتي كانت تعاملها بفضاظة قاسية وهي بدورها لم تكن تعاملها بأحسن من ذلك، فردت عمتي بأن القلب يضر عكس ما يصدر. هراء طبعًا! غير أن صوتها الحزين، كما لم أعهده من قبل، دفعني إلى السكوت. وفجأة، ربما بتأثير سحر الاستلقاء فوق سريرها، طلبت من عمتي أن تُحدثني عن جدتي.

وعن عمتي، جاء أن جدتي كانت في الماضي امرأة جميلة، وكان أول من وقع في أسر حبها ضابطًا تركيًّا، ولم تكن قد تجاوزت سن الثالثة عشرة بعد، فاستحال تزويجها له. وقد بقي لوقت طويل يأتي لزيارة منطقة سكنها ليتفقد أخبارها، خاصة بمن تزوجت هذه المرة، فقد تزوجت جدتي عدة مرات، ربما أربعًا، عدا أولئك الذين أحبوها من بعيد بصمت. أما هي، حسبما تقول عمتي، فلم تحب أيًا من الرجال، عدا زوجها الأخير، جدي حسن.

وكانت قد تزوجته رغم اعتراض ابنها البكر من زواج سابق، مع أن جدتي كانت تحب هذا الابن بشدة، وكانت ستفعل أي شيء من أجله، ذلك عدا أن تتخلى عن جدي حسن. وقد كان عمي هذا وجدّي كثيرًا ما يتعاركان، لشدة غيرتهما الواحد من الآخر، خاصة عمي من جدي. بل ذات مرة، سحب عمي بندقيته ليقتل جدي، لكن جدتي، التي كانت أيضًا قوية جدًا، شدتها منه وقالت إنه إن مسّ حسن فستقتل هي نفسها. ولقد جرى هذا الشجار أمام عمتي التي هي أيضًا كانت ممزقة بين حبها لنصف شقيقها وحبها لأبيها.

ومن أفعال الحب بجدتي أنه ما إن كان جدي يغيب لمدة تزيد على اليومين حتى تخر مكانها من ألم الشوق، ولا تتوقف عن التغني به بقلب حزين، وما إن يصلها من بعض الخيّالة أنهم رأوا جدي عائدًا إلى منطقة سكنانا حتى تهب من حزنها وتهرع لملاقاته في الطريق، ثم تروح تُقبّله في كل مكان وهي تنشد: «يا حسن يا غايب، حبك زاد في قلب الحبايب». وكان جدي يضحك بزهو وبدلال بينما الناس من حولهما يتأملون بإعجاب هذا الحب الجارف الذي يجعل نوبا الخليل تُقبّل قدمي حسن على الملأ.

وتضيف عمتي، بعد الاستنكار، أنها لطالما شعرت بالخرج من حب أمها لأبيها، والذي كان يصنع منها امرأة

هشة وضعيفة. سألت عمتي عن جدي، وماذا حدث له، ومتى مات.

بعد تردد، أجابت عمتي: «سنة ١٩٤٨». كان ذلك بعد معركة الشجرة التي تصدى فيها المقاتلون، بينهم جدي، لعصابات الهاجاناه. لكن بعدما لم تصل إمدادات جيش الإنقاذ، عادت الأخيرة وشنت هجومًا على منطقتنا، قتلت خلاله امرأة اسمها نمرة الحسين تكون ابنة أخي جدي حسن، وطفلها، وجدي حسن... وجدتي التي لم تستطع أن تعود إلى حياة لا وجود فيها لحياة جدي.

ساؤول، صيف ٢٠٠٨

خارج الوقت

إنها ساعتي الصغيرة هي أول من يلمس التغيير الناجم عن الخروج من فلسطين أو الدخول إليها. في الطريق إلى هناك، ألمحها في رسغي تحصي الوقت بالثانية، بانتظار اللحظة التي تطأ فيها عجلات الطائرة مدرج المطار، فأضبطها حسب التوقيت المحلي، وتنطلق هي تعدّه بألفة متناهية. وما إن أخرج من فلسطين حتى أجدها تتقدم من غير لهفة، تتأني في وداعها إياه، ذلك الوقت الذي سينتهي لحظة هبوط الطائرة فوق أرض مطار غريبة.

قد يبدو للبعض أنني أبالغ قليلاً في ما أروي عن ساعتي، خاصة أنها ساعة صغيرة، كثيراً ما يستغرب الناس كيف يمكنها أن تدلني على الوقت بالأساس، لشدة ما هي صغيرة. بل أمكنني، أنا أيضاً، مشاركتهم شكوكهم، لولا أنني لم أعرف كل ما بت أعرفه عن الساعات وما لديها من قدرات.

كان ذلك في فترة دراستي الابتدائية، خلال إحدى حصص الأدب العربي. كان منهاج التدريس آنذاك، كما لا يزال حتى هذه اللحظة، خاضعاً لمكتب الرقابة الإسرائيلي، فكانت تُدرّس نصوص أدبية من شتى الدول

العربية ما عدا فلسطين، تحسبًا لما فيها من إشارات أو حتى إحياءات قد تثير وعي الطالب بقضية فلسطين. وهكذا، عُدَّ الأدب الفلسطيني من المحظورات، إن لم يكن من المحرمات، مثله مثل الأدب الإباحي، ما عدا قصة واحدة، قصة «الساعة والإنسان» للكاتبة سميرة عزام، التي يبدو أن مكتب الرقابة عدّها قصة «غير ضارة».

وتحكي قصة «الساعة والإنسان» (الصادرة في عام ١٩٦٣) عن شاب يستعد للنوم قبل أول يوم عمل له على الإطلاق، فيضبط منبه ساعته عند الساعة الرابعة صباحًا كي يصحو في الوقت المناسب ليلحق بالقطار الذي سيوصله إلى مكان عمله في الموعد المحدد. وما إن يكاد ينطلق رنين جرس المنبه في فجر اليوم التالي حتى يسمع صوت قرع على باب بيته. حين يفتحه الشاب، يجد أمامه رجلًا مسنًا لم تسبق له رؤيته، كما لا تسنح له الفرصة لسؤاله عمن يكون، إذ إن الأخير سرعان ما يستدير مبتعدًا ليختفي في عتمة الفجر. ويتكرر الموقف ذاته يوميًا إلى درجة يتوقف معها الموظف الشاب عن ضبط ساعته. وليس إلا بعد مرور أشهر عديدة حين يكتشف هوية الطارق، بعد أن يخبره زميل له في العمل أن ذلك الطارق يدور يوميًا على جميع الموظفين في الشركة ليوقظهم في الوقت المناسب، كي لا يتأخر أيُّ منهم عن

موعد انطلاق القطار فيلقى المصير الذي لقيه ابنه حين بلغ المحطة ذات صباح متأخرًا، بينما كان القطار يوشك على التحرك، فتعلق باباه، لكن يده خذلته وسقط بين عجلات القطار.

للوهلة الأولى، قد تبدو هذه القصة عادية و«آمنة»، خاصة للرقيب، إلا أنها، في الواقع، أسهمت في بلورة وعي بما يتعلق بمسألة فلسطين كما لم يفعل أي نص آخر في حياتي. أكان هنالك ذات يوم موظفون فلسطينيون ينطلقون كل صباح إلى محطة القطار للذهاب إلى أماكن عملهم؟ أكانت هنالك محطة قطار؟ أكان هنالك قطار يصفر؟ أكان هنالك حياة «عادية» ذات يوم في فلسطين؟ وأين هي اليوم؟

راح النص يومها يحفر في نفسي إحساسًا عميقًا بالفقدان لكل ما هو، بما فيه المأساوي، عادي وسوي، لم أعد قادرة معه على تقبل الحياة المهمشة والثانوية التي نُفينا إليها بعد عام ١٩٤٨، حيث لم يعد وجودنا يعدو كونه «مشكلة».

مقابل قصة تلك الساعة وما أوحى إليّ به عن إمكانية تعدد أشكال الوجود، هنالك ساعتى الصغيرة. وساعتى هي أشبه ما تكون بالرجل المسن في قصة عزام منها بساعة سويسرية جل اهتمامها حساب الوقت بدقة، فعلى خطى

ذلك الرجل الذي تحول من إنسان إلى ساعة ليصبح العيش محتملاً، قررت ساعتى أن تتحول من ساعة إلى إنسان.

في فلسطين، كثيراً ما أجدها قد توقفت عن الحركة تماماً. فجأة، تدخل في حالة من الغيبوبة لا تعود معها قادرة البتة على حساب الوقت. في آخر مرة كنت هناك في زيارة، ضبطتها كعادتي وفق التوقيت المحلي لحظة مست عجلات الطائرة أرض مطار اللد. كانت الساعة عندها الثانية إلا عشر دقائق بعد الظهر. اتجهت نحو نقطة فحص الجوازات، وكان عدد الواقفين في الطوابير قليلاً على غير العادة، وراح طابوري بدوره يتقدم بشيء من الانسياب. وصلت، وأعطيت جواز سفري للشرطة، وتأخرت هي في فحصه، ثم تأخرت أكثر. فجأة، ظهر ثلاثة أشخاص، موزعين بين أجهزة أمن وشرطة ومخابرات، واصطحبوني معهم خارج الطابور، لتبدأ بذلك سلسلة طويلة من التحقيق والتفتيش. وقد جرى كل شيء كما هو معتاد في مثل هذه الحالات: تحقيق كامل عن حياتي، وتفتيش شامل لأغراضي. بعدها، اصطُحبت إلى غرفة جانبية لإجراء تفتيش لجسمي. وبينما أخذت سيدة حذائي وحزامي للفحص بواسطة جهاز الأشعة، بقيت أخرى مع ساعتى، إذ حملتها بين يديها وشرعت في تأملها بتفانٍ وإخلاص. بعد لحظات، نظرت إلى ساعتها، ثم

عادت تنظر إلى ساعتى، ثم مرة أخرى إلى ساعتها، ثم إلى ساعتى. عندما عادت السيدة الأولى بصحبة بقية أغراضى، أسرعت هذه نحوها لتخبرها بأن هنالك شيئاً غريباً في الساعة: إنها لا تتحرك. لقد مر حسب ساعتها خمس دقائق، بينما ساعتى لم تتقدم دقيقة واحدة. نادت السيدتان مسؤول الأمن، فيما أخذت دقائق قلبى المضطربة تقرر صدري بشدة.

لا أدري كم من الوقت مضى قبل أن تُزال جميع الشبهات حول ساعتى، فحولى، وأُطلق سراحنا. لكننى، حين وصلت إلى البيت، اكتشفت أنها كانت التاسعة ليلاً، بينما ساعتى ما زالت تشير إلى أنها الثانية إلا عشر دقائق. هي يبدو مجرد تحاول أن تواسينى عبر إيهامى بأن كل ذلك التفتيش والتأخير دام صفراً من الدقائق، كأن شيئاً لم يكن، أو ربما هي فقط ترفض حساب الوقت المسلوب من حياتى لصالح ما هدفه أن يبعث اليأس فى نفسى. نوع من تعليق الوقت كوسيلة للاحتيال على وقت الألم.

وأمام هذا التقاعس عن حساب الوقت فى فلسطين، خارجها، لم تكف عقارب ساعتى ولو مرة واحدة عن التحرك. أجدها لا تتأخر عن حساب أى ثانية من الوقت الآخر، بل كثيراً ما تحسبه أسرع من اللازم، فتروح تبدو وهي تجري مستعجلة كما لو أنها تنفضه عنها لحظة تلو الأخرى، هذا الوقت الآخر، واللاحق بوقت فلسطين.

هكذا، سواء أكانت تلك سبع ساعات أم صفراً هي
التي تُبعدها عن فلسطين، الأمر سيان بالنسبة إلى ساعتى
الصغيرة التي ليس إلا لسلواني، تقودني إلى خارج الوقت
أينما حللت.

إحياءات واهنة بالطمأنينة

٢٠٠٢/٣/٢٩

أفقت على اجتياح موجة شديدة من الضوء للغرفة، إلى درجة اعتقدت فيها أنني لم أغلق الستائر قبل ذهابي إلى النوم ليلة أمس، ثم عدت إلى النوم.

صحت مرة أخرى على اهتزاز باب الحمام بشكل عصبي ومفزع، وتنبهت بعدها إلى صوت هطول المطر وارتطام قطراته بجدران البيت وزجاج النوافذ، فانتابني خوف شديد من أن يجرف المطر بيتي. هل معقول ذلك؟ ثم عدت أنام.

صحت نهائياً الساعة الثامنة والثلاث تقريباً، ثم بدأت مباشرة بحساب مجمل الساعات التي نمتها، مع إنقاص الوقت الذي صحت فيه، وحاولت إقناع نفسي بأنها كانت سبع ساعات، ذلك كي أنتحل إحساساً بالراحة الجسدية فأمضي في يومي.

وشعرت بسعادة عندما دخلت إلى المطبخ ورأيت أن الجرن يخلو من أي أوانٍ عليّ غسلها. يبدو أنني أحياناً إنسان لا بأس به، قادر على أن يفعل بعض الأشياء التي

تعود بالخير عليه لاحقًا، إذ إنني عندما نظفت المطبخ عصر أمس لم أعرف أن ذلك سيسبب لي مثل هذه السعادة في صباح هذا اليوم. لكن هل يعني ذلك أنني لم أستخدم مُنذها أي صحن أو سكين أو حتى كأس؟ ألم أتناول أي طعام منذ ذلك الوقت؟

ثم عدت وتذكرت أنني كنت مدعوة ليلة أمس إلى العشاء. أجل، أكلت. وعدت أشعر بالراحة والطمأنينة مرة أخرى.

إبريق القهوة على النار، ثم دخلت إلى الحمام. فتحت الحنفية، وراحت المياه تنزل بثبات وإصرار وبرد. عليّ غسل وجهي بالماء البارد كي أغلق مساماته، وهذه الرغبة في إغلاقها تعود في الأساس إلى ما أخبرتني به سيدة كانت تجلس معي في الساونا، وهو أن القدس مدينة قادرة جدًّا، والوجود المستمر في الساونا يؤدي لاحقًا إلى تفتح مسامات الجلد، وهكذا إلى تسلل الثلوث إلى الجسم في طريق العودة إلى البيت.

كانت المياه لا تزال تنساب باردة. انتشلت بعضها ورفعته إلى وجهي، عندها، رأيته للمرة الأولى ينعكس في المرأة المعلقة فوق الحنفية. يا إلهي! ما أبشع شعري، كأنه وُضع طوال الليل في قالب على شكل مثلث.

هذا هو. لن أصحو أبدًا وأجده مصفًا مثلما عندما تصحو أغلب الممثلات.

ثم رأيت قليلاً من السواد تحت عينيَّ. عدت ووضعت بعض الماء عليهما علّه يزول، وبعدها، جففتهما ببطاء وبلطف، لكنه بقي. بعد تدقيق يائس، استسلمت، ورحت أرى فيه إحياءات واهنة لعيني تلك المرأة.

٢٠٠٢/٣/٢٣

لا أعرف ماذا كان اسمها، ولكن اسمها كان ربما سلمى. التقينا بها بينما كنا، أنا وصحفية فنلندية، نزور مخيم بلاطة.

كان كل ما يبدو منها هو سواد شديد تحت عينيها، لا يتماشي مع نشاطها وحماسها الجسديين، فيبدو كما لو أنه مجرد خطأ في المكياج.

جلست إلى جانب كومة من الأغذية يصدر من عمقها أنين مفزع وراحت تطبطب عليها دون فائدة، فيما تحيط بنا العتمة من كل جانب. حتى المصباح المضاء والمعلق بالسقف بمسمار كان يبعث بظلام وبرودة وإحباط إلى مكان جلوسنا. ثم أخذت تتحدث عن ليلة اقتحام الجيش الإسرائيلي للمخيم، وهكذا إلى بيتها، بصوت لا يمت إلى هذا العالم بصلة، مشيرة، خلال ذلك، إلى الطاقات التي فتحها الجنود بواسطة المتفجرات في جدران بيتها. تصرخ من حين إلى آخر باتجاه أحفادها

وزوجها المتكوم تحت الأغطية كي يهدؤوا حتى تفهم ما الذي نريد الاستفسار عنه.

صراخها والسواد تحت عينيها كانا يوحيان لا محالة بتعب شديد هي لا تخضع له ولا تعترف به أساسًا. إنها تتصرف بمسؤولية، تحاول الإمساك بزمام العدم والدمار، ومن ثم الإصرار على أن هنالك شيء ما يستحق العيش من أجله.

بعد وقت، وعلى أثر طلب الصحفية، أخذتنا في جولة لرؤية الحُفر التي لم يُثَمِّمها الجنود، لأن البيت احترق فجأة إثر إصابة خط الكهرباء المركزي بشظية من إحدى القنابل التي ألقوا بها داخل البيت. وهكذا، فروا هاربين، تاركين خلفهم النار تشتعل في حطام ليس مكتمل.

هي وأبنائها وأحفادها أُجبروا على إخلاء البيت لحظة اقتحمه الجيش، لكن زوجها بقي في المنطقة يراقبه، وعندما رآه يحترق، أسرع يحاول إطفاءه، وعبثًا. أما هو فقد اختنق وأغمي عليه، لكنه لم يمت، فقط حدث شيء ما لدماغه بسبب انقطاع الأكسجين عنه لفترة طويلة، وفقد عقله.

تصعد سلمى الدرج أمامنا لترينا آثار اللهب، والطرحة البيضاء فوق رأسها لا تعرف راحة مثل روحها، فتهبط وتنزل وتهب وتواسيني بحلاوة ونعومة لا ترضخان لهذا البؤس الذي لا مخرج منه.

كل شيء احترق. أوراقها الشخصية كلها احترقت، وبطاقة هويتها أيضاً، ويروعها هذا أكثر. تتحدث عن هذا غير مصدقة وغير مستوعبة أنها الآن بلا بطاقة، وأنا لا أترجم ذلك للصحفية التي بالنسبة إليها كل هذا الدمار المادي أشد أهمية من احتراق بطاقة هوية، بينما لسلمي البطاقة كانت الشيء! ربما الشيء الوحيد والأخير الذي كان يعترف بوجودها بصفته إنساناً.

تستدير لتهبط الدرج وتتبعها، والآن، طرحتها البيضاء تصعد وتطير وتتموج بثناقل، فأتأخر قليلاً حتى تهدأ ويتسنى لي النزول بدوري، وعندما يحين الوقت، أخطو واحة قدمي اليسرى فوق الدرجة الأولى، فإذا بها تتسلل تحت قدمي وأدوس طرفها. يا إلهي! ماذا فعلت؟

استدارت سلمى إليّ لأن طرحتها العالقة تحت قدمي قد شدت رأسها إلى الخلف. لم تقل شيئاً، ولم أعرف ماذا أقول. رفعت قدمي بسرعة، وحاولت أن أمسك بها حتى أنفض قذارة حذائي عنها، بل عليّ أن أقبلها كأدنى حد، ودون جدوى. فرت. عادت تهرب في الهواء. كلاهما، سلمى وطرحتها، كانتا قد ابتعدتا عني، بينما أنا أتلكأ داخل حرجي بخراقة.

٢٠٠٢/٣/٢٩

لقد كانت تلك الطرحة الخفيفة تحفظ فوقها البياض
الأخير من عتمة المخيم، وتبعث فيّ بمثل خفتها أملاً
واهناً، فيما يملؤني بياض الغيوم المتكدر في السماء
بسأم شديد، يزداد في كل مرة أطل فيها من نافذة المطبخ
الغربية، أبحث عن نهاية لها، ولكنها لا تزال تتحرك،
غيمة خلف غيمة بلا نهاية وبلا دفء.

٢٠٠٢/٣/٢٥

لا يهم كم يبدو هذا الإحساس بريئاً، لكنه يأتي ذلك
اليوم الذي يحسد فيه واحدنا حركة الغيوم المناسبة في
السماء وحرية العاصف في الانتقال من مكان إلى آخر.

أنزلت عينيّ من السماء وعدت أنظر إلى صف
السيارات الذي كنا عالقين فيه عند حاجز بيت لحم.
إلى يميني، وقف رجال متراصون خلف حاجز حجري يقف
أمامه جندي يُقلّب بطاقات الهوية بين يديه طالباً من
كل واحد أن يفتح جاكيتته ويرفع قميصه. لن أستطيع
الوقوف هناك، أفكر، وأفكر بكل الطرق الممكنة المتبقية
غير هذه الطريق، ودون فائدة.

أُحوِّل أنظاري إلى اليسار هذه المرة، وأُثبتّها على بقعة وحل كبيرة لا يهدد سكونها شيءٌ، وتبدو حقًا مثل قطعة شوكولاتة ذائبة ولذيذة. عندما أصل إلى البيت، أقرر: سأذهب لشراء شوكولاتة مع بندق ولوز. تعود الغيوم وزرقة السماء تنعكس على وجه المياه الموحلة، فتعود إلى ذهني صور حطام البيوت التي أُصِبت من جراء قصف مدينة بيت لحم، حيث يبدو الدمار منذ الأزل كأنه لم يأوِ نفسًا حية ذات يوم، رغم أنني جلست قبل شهر فقط على شرفة إحدى تلك البيوت، وشربت ماءً، بل كان للماء طعم بيتي، قدمته لي صاحبة البيت.

٢٠٠٢/٣/٢٨

لم أنهِ فنجان قهوتي، وخجلت أن أقول ذلك للفتاة التي رفعت الصينية وابتعدت مع بقية الفناجين باتجاه المطبخ. قهوتي!

عدت إلى وعيي وإلى جليسي، الصحفية الفنلندية وأحد قادة «حماس» السياسيين الذي استحم لتوه، إذ لا يزال شعره مبلولاً.

قبل أكثر من ثلاثة أسابيع، في ٢٠٠٢/٣/٤، حاولت الحكومة الإسرائيلية اغتياله، فأطلق الجيش صاروخين أرض- أرض على سيارته التي كانت تعبر أحد شوارع

رام الله. هو لم يكن في السيارة، إنما زوجته وثلاثة من أولاده، إذ كانوا عائدين من المدرسة إلى البيت. هو كان في البيت عندما سمع صوت الانفجار وحرار عن مكانه. ثم جاءه الخبر. خرج إلى موقع الحادث، وكان قد سبقه إلى هناك العديد من الناس. شق طريقه بينهم، واقترب أكثر، وأكثر. كان يريد أن يراهم. واقترب. لكنه لم يجد شيئًا. كل ما رآه كان أجزاء لسيارة محطمة. لم يرَ أي شيء آخر. لم يرَ زوجته، وابنتيه وابنه. كانوا قد تحولوا إلى أشلاء.

قال إنه في تلك اللحظات كان يقف صامتًا يصلي داخله ألا ينهار، ألا يفقد عقله. وحمله الناس بعيدًا. في الحادث نفسه، قُتِلَ أيضًا طفلان كانا يجلسان في السيارة الخلفية.

٢٠٠٢/٣/٢٩

عدت إلى فراشي بصحبة قهوتي، بعيدًا عن المطبخ وأفكاره. لكنني لا أنجح بالابتعاد، إذ بينما يركد الحثل في الغلاية، يعود الخدر إلى حواسي مصحوبًا بذكريات الأيام السابقة، لا إراديًا.

أقف بانتظار انتهاء الصحفية من الحديث مع أحد الرجال كي يغادر مخيم بلاطة. في تلك الأثناء، سألت أحد الأولاد الواقفين قربي دون سبب كم عمره، فدفع بكل كفه المفتوح أمامي وقال: «خمس سنوات.» فجأة، اقترب إليّ وقال إنه رأى جنديًا إسرائيليًا يدخل ويصنع دوائر في الهواء عندما ينفث الدخان إلى الخارج. كان الجنود قد احتلوا بيوتهم أيضًا خلال موجة الاقتحامات السابقة وحبسوا ثلاث عائلات معًا في غرفة واحدة لمدة ثلاث أيام، قام على حراستها ذلك الجندي الذي كان من المدخنين، بينما الطفل لا يزال مبهورًا حتى يومنا هذا مما كان السابق قادر على أن يصنعه من دوائر متعاقبة من الدخان.

عملية انتحارية ينفذها أحد ناشطي القسم العسكري لحركة «حماس» في فندق في نتانيا تؤدي إلى مقتل ٢٩ إسرائيليًا وإصابة العشرات ليلة عيد الفصح.

أشعر بضيق شديد في صدري ولا أستطيع التنفس جيدًا. لا أريد أن أتحدث مع أحد. لكن، بعد عشر دقائق، أحاول الاتصال بصديقة لا أدري لماذا. يرن الهاتف من الجهة الثانية دون تأثير.

الشاب، الذي نفذ العملية، من طولكرم. في موجة الاجتياحات الإسرائيلية السابقة للمخيمات، قتل الجيش ما يقارب خمسين من أهل المخيم، واعتقل أكثر من ستمئة شخص في فترة عيد الأضحى.

يقول تشيكوف إنه إذا ظهر مسدس في بداية مسرحية ما فلا بد أنه سيُستخدم هذا المسدس في نهايتها، بينما، في الواقع، إذا فاحت رائحة الدم هنا فلا بد أنها ستفوح هناك.

ومن هنا، في هذه الليلة، أدرك أن الاحتلال لم يحتلنا جسدياً فقط، بل احتل ذاتنا وملأها بـ«سهولة القتل». كل ما أحلم به هو ألا تكون أحلامي ببشاعة الحياة.

٢٠٠٢/٣/٢٦

أنهينا العمل مبكراً. أوصلت الصحفية إلى الفندق، وجلست أفكر في بقية يومي. كان أمامي ما يقارب ثلاث ساعات قبل المغيب، يمكنني التجوال خلالها، إذ مع قدوم العتمة يأتي الرصاص من داخل مقعد الحمام حتى. رام الله؟

أشرت إلى اليسار ثم إلى اليمين، ومباشرة إلى اليسار وبعدها إلى اليمين. ثم يميناً، ويميناً، ويساراً، ويميناً،

ويسارًا، ويمينًا، ويسارًا، ولا أنتبه إلى ازدياد السرعة المتواصل إلا لحظة يبدأ المقود بالارتجاف بين يديّ. ١٥٠ كيلومترًا في الساعة بينما السرعة المسموح بها هي ٨٠. أنظر حولي في الشارع، وليس أنه لا توجد شرطة مراقبة حركة السير، بل إنه لا توجد حركة سير أساسًا.

إذن أنا الوحيدة القادرة على الحركة. أستطيع عبور الحواجز ودخول نابلس ورام الله وطولكرم والخروج منها جميعًا لأنني بحوزتي بطاقة صحافة مؤقتة تُمنح (على مضض) للصحفيين الفلسطينيين حاملي الجواز الإسرائيلي، بينما هنالك أكثر من ثلاثة ملايين فلسطيني لا يستطيعون ذلك. محاصرون.

ومع هذا السكون وهذا الفراغ إنما يبدو الحصار أكثر حقيقة.

فجأة، حين التفتُ في إحدى المرات إلى اليسار، اكتشفت أنني كنت أقود السيارة منذ وقت في المسار المعاكس.

وهكذا، بدل الإحساس بالاتجاهات، حل إحساس بالغبرة.

والآن، إلى أين؟

أقود السيارة ببطء في الشارع الرئيسي لمدينة رام الله. ربما صديقتي وولداها التوأمان!

لحظة وصولي إليهم، بدأت تحدثني صديقتي عن الأيام التي قضاها في البيت محاصرين والدبابات متمركزة حول بيتهم، فشعرت أنني لا أطيق سماع قصص الحصار هذه أكثر. لكل واحد قصة، ولا أملك إلا الإحساس بالعجز والسأم تجاهها. أستأذن وأقول إنه يجب عليّ المغادرة. ترافقني هي وابنتها وابنها إلى الخارج، فنعبر الحديقة، ونتفقد الربيع والأزهار حول البيت، ثم نرفع رؤوسنا إلى السماء محاولين معرفة مكان العصافير هذه التي كانت تغرد، وبدأت الغيوم قطنية خفيفة مقسمة إلى مربعات صغيرة، فأشارت إليها الصغيرة قائلة إن شكلها يبدو مثل الدبابة.

لم أفهم ماذا كانت تقصد، ولتفهمني، دفعت بنفسها أمامي تقودني بنشاط إلى الشارع خلف باب الحديقة. عندما وصلنا، أشارت بإصبعها الصغير إلى آثار الدبابة على الإسفلت. كانت الآثار تشبه شكل الغيوم، كأنما بحق مرت دبابة على السماء، جاعلة الغيوم تبدو على ما كانت تبدو عليه. قلت لها إن السماء تغار من رام الله وتريد أن يكون لها ما يوجد عندهم، أما هي فضحكت بخجل لخدعتي البسيطة، والتصقت بساقي.

عند باب السيارة، وقفت صديقتي مكتوفة اليدين كأنما كانت تشعر بالبرد، عيناها تدوران كعادتهما من السماء وإلى الأشجار. وبينما هي كذلك، تأوهت فجأة ثم

قالت: «أنا تعبَةٌ جدًّا».

ركبت السيارة وذهبت. لا أعرف ماذا كان يمكنني أن أفعل غير ذلك.

قدت السيارة وفي رأسي تدور فكرة لمحاولة أخيرة للاطمئنان على صديقة تبلغ من العمر ثمانين عامًا، على الأقل.

عندما وصلت، كانت رائحة البنفسج تملأ الحديقة. قرعت بابها. أغلب الأزهار كانت قد تفتحت. لا ترد. ورحت أكتب لها ملاحظة أتركها على الباب أو بين الأزهار. فجأة، جاءني من الخلف صوت خطى بطيئة تبعها نداء: «يا آنسة صغيرة!» ابتسمت، ودرت برأسي. كانت امرأة كبيرة السن صغيرة الحجم ترتدي ملابس تتلاءم جدًّا والموضوعة الحالية: تنورة فوق الركبة بقليل وجزمة حتى الركبة. قالت مبتسمة جدًّا إنها رأيتني أقرع الباب، فقالت ربما تأتي لتخبرني أن الآنسة د. قد انتقلت إلى ملجأ للعجزة منذ أكثر من أسبوعين، إذ سقطت مغميًّا عليها لأكثر من يوم دون أن يعرف أحد بذلك، وأعطتني عنوان الملجأ.

الآنسة د. في الطابق الثالث، وصعدت معي إحدى الممرضات.

كانت تجلس صامتة بصحبة عدة سيدات يشاهدن
معًا فيلمًا مصريًا. كان شعرها طويلًا على غير عادته،
فبدت أكثر وحدة وإهمالًا، حتى نظراتها من خلف نظارتها
أوحت بالوحدة والاستسلام.

تفاجأت هي ليس أقل مني، وسألني مباشرة كيف
عرفت بمكان وجودها. بعدما أخبرتها، لم يعد هناك
موضوع للحديث. كان كل شيء حزينًا ومسنًا. وددت لو
أختطفها من هناك فأعزلها عن كل هذا. إنها د. الخاصة،
لا إحدى النساء المسنات في الملجأ.

لكنني رحت فقط أُعلّق عينيّ بشاشة التلفاز.

بعد وقت، مدت إحدى السيدات يدها باتجاه
الأزهار البلاستيكية الموضوعة على طاولة في مركز الغرفة
وأخذت تتحسسها، ثم تركتها قائلة: «خسارة أنها ليست
أزهارًا حقيقية».

٢٠٠٢/٣/٢٩

كانت الساعة تقترب من التاسعة، فأشعلت جهاز
الراديو لأسمع أيضًا حالة الطقس، فربما كانت هنالك
أخبار حسنة بخصوص الشمس.

مئتا دبابة احتلت مبنى مقاطعة رام الله وحُوصِر
عرفات في أحد الطوابق.

عدت إلى المطبخ، ثم تذكرت أنني لم أنتبه إلى نشرة الأحوال الجوية، ولكنها، بعد لحظات، بدأت تمطر بغزارة.

لقد سقطت إذن بتلات الأزهار من على أشجار اللوز دون أن أقربها. كل ما وددته في هذه النهاية من الحياة هو مشاركة هذا الربيع نفسه والتمتع بزهره، رغم أنني لا أعرف كيف وأين وبأي حق.

وددت أيضًا لو استطعت أن أخرج من هذه الحيادية التي وصلت إليها، حيث تناول الطعام وعدمه يتساويان، الحديث وعدم الحديث، الحب وعدم الحب، وعلى المسار ذاته، الحياة والموت، بل لم يعد يهمني حتى أصدقائي تحت الحصار. صار لا يهمني. الإحساس الملازم صار أقسى من أي إحساس بالذنب وأخطر منه، فإن اتصلت بهم فعلت ذلك لمجرد التأكد من أن عددهم لا يزال كما هو، ليس أكثر.

تركت النافذة ورحت أقف أمام الثلاجة أفكر. بعد تفكير لا بأس به، وجدت أن كل ما أملكه من أفكار لدعم ناسي ومساندتهم في هذه الفترة هو تغيير كلمة السر لدخول بريدي الإلكتروني من اسم آخر صديق لي إلى «عرفات». لكنني لا أعرف بماذا أعرفه حتى إذا ما نسيت كلمة السر أعود وأذكرها.

القدس، صيف ٢٠٠٢

بدم بارد

الأيام تمضي، ربما بشيء من القسوة، لكنها، مع ذلك، لا تعوق المرء عن الاستمرار. بدم بارد، أتابع أحوال العالم، بارد جدًا كالشتاء الذي أبدأ أيامي فيه كما في غيره من الفصول بتصفح أكثر ما يمكن من نشرات الأخبار من على مواقع شبكة الإنترنت. أقرأ العناوين بالأساس التي تلخص عادة الخبر، ومن ثم لا حاجة لي بقراءته بالكامل، فعلى أي حال سأنسى بعد لحظات عدد الموتي الوارد في العنوان، أكان ١٧ أم ٢٣، لست متأكدة أكثر، كما لست متأكدة إن كان العدد في الواقع ٧١ و ٣٢ وعكس حاسوبي المهيأ لقراءة الملفات وفق النظام العربي الأرقام، إذ قرأها من اليمين إلى اليسار بدلًا من اليسار إلى اليمين. لا يمكنني المعرفة أبدًا، كما لا يهمني كثيرًا، فبعد لحظات، سأنسى كل تلك الأعداد كما اعتدت أن أنسى في الماضي ما جاء في برجي في إحدى الصحف بعد قراءته بلحظات، فكل يوم له طالع جديد، ولكل يوم أخبار جديدة عن انفجارات هنا واشتباكات هناك وموتى بالعشرات. بصدق، حتى لو رغبت في التذكر فلن يمكنني ذلك بعد أن بات دمي باردًا. وبرودة دمي ضرورة لجعلي إنسانة

قادرة على الاستمرار في العيش، وبعزم. فلو انهار العالم كله من حولي فلن تنهار أعصابي، إنما سأمضي في يومي كالمعتاد، بصرامة، وبنجاح. وإن فجأة تعرّضني الفشل، أذكر نفسي بأن دمي بارد ولا يهمني الفشل كما لم يهمني النجاح من قبل، بل إن نجاحي الحقيقي يكمن في قدرتي على توجيه الأمور لا نحو السعادة كما لا نحو اليأس، إنما باستقامة حيادية.

لكن، بالرغم من ذلك، عليّ أن أعترف: أنا أفشل أحياناً. مؤخراً، مرتين، كالיום مثلاً، إذ كدت أموت حين أفقت، وتطلعت إلى المنظر عبر نافذة غرفتي ولم أجد الثعلب يتلفع بذيله نائماً بين أغصان الشجيرات الجافة خلف حديقة البيت. بكيت بحرقة قبل أن أستعيد برودي.

منذ أيام عديدة وأنا أرقب هذا الثعلب يومياً وهو مستغرق في نومه طيلة النهار بين الشجيرات، يؤنسني فيما أنا جالسة إلى طاولتي أعمل، إلى حين قدوم العتمة، عندها، ينهض ويغادر. إنه صديقي العزيز، الحقيقي والوحيد. ذات ليلة، أفقت من نومي فجأة أتساءل إن كنت قد وقعت في حب هذا الثعلب وإن كان ذلك أمراً طبيعياً أن تقع امرأة في حب ثعلب كما تقع في حب رجل. وقد أفزعني الفكرة لبعض الوقت، ليس أن أقع في حب حيوان، إنما أن أقع في الحب، فهذا سيطوح بحصن البرودة الذي بنيته بشق الأنفس من حولي. وها

قد اكتشفت هذا الصباح أنني قد وقعت في كمين هذا الثعلب الماكر، إذ رحت أبكي وحشة غيابه. لكن ليس هذا الكمين فقط. قبل أيام، كنت قد وقعت في كمين آخر ليس مصدرًا أقل للشقاء.

كنت أتصفح نشرات الأخبار كعادي، وكعادي، لا أقرأ سوى العناوين وعدد القتلى الذي يرد فيها، وهو عادة بالعشرات. فجأة، رأيت عنوانًا فيه عدد القتلى واحد فقط. لم يكن من الممكن لنظام جهاز كمبيوتر العربي أن يتبلبل في قراءة العدد، فالواحد واحد، قُرئ من اليمين إلى اليسار أم من اليسار إلى اليمين. وجدت يدي تدفع بالفارة نحو العنوان لتضغط فوقه ويظهر كل المقال، وهكذا، وقعت في الكمين. فتمامًا كما اعتقدت أن الوقوع في حب ثعلب أشد رحمة من الوقوع في حب رجل، اعتقدت أن معرفة تفاصيل موت شخص واحد سيكون أشد رحمة من قراءة تفاصيل موت العشرات.

في خبر صادر عن صحيفة هآريتش الإسرائيلية، جاء التالي:

«أطلقت دورية لجيش الدفاع الإسرائيلي النار، وقُتل فلسطيني في الخامسة عشرة من عمره، حاول أن يعبر من قطاع غزة إلى إسرائيل. وقد أُلقي القبض على فتيين آخرين أُعيدا إلى المناطق الفلسطينية.

ولقد جرت هذه الواقعة صباح الأمس باكراً، حين شُهِد ثلاثة يزحفون نحو السياج قرب معبر كيسوفيم. وأفادت مصادر عسكرية بأن أحد الفتية لم يتوقف حين أمر بذلك. أطلق الجنود النار، وقُتِل الفتى.

فتى آخر أُصيب بجروح طفيفة وعُولج في مستشفى سوروكا في بئر السبع. بعد التحقيق، أُطلق سراح الفتيين إلى قطاع غزة. وقال الاثنان إنهما حاولا العبور إلى إسرائيل للبحث عن عمل.

تفيد القوانين المتعلقة بالجدار بإطلاق النار على كل من يُشاهد يزحف ليلاً».

أعيد سرد الخبر لنفسي ببطء. شاب في الخامسة عشرة من عمره، أقل من نصف عمري، يترك بيته فجراً مع صديقين له للبحث عن عمل خارج غزة، فلا عمل في غزة، فقط رصاص. لا بد أنه سيهب دخله لعائلته، سيمنحه لوالدته وهي ستصرف، فهو في الخامسة عشرة من عمره. والده عاطل عن العمل وقاعد في البيت أو ربما نائم، فلا عمل في غزة. يلتقي بصديقين له، ويفكر الثلاثة: ما العمل؟ البحث عن عمل. لكن لا عمل في غزة، ويتفق الثلاثة. في الفجر البارد والعتمة، سينطلقون الجدار فقط ليجتازوه ويصبحوا خارج غزة. خمسة عشر عاماً أو أقل.

يقال إن المراهقين كسالى، لكن لا يجب التعميم،
فها هم الثلاثة تركوا ليلهم دون نوم، خرجوا من تحت
لحافهم الدافئ نحو البرد، ليقربوا ببطء من الجدار فيما
العتمة تتظاهر بأنها تسترهم. بعد الجدار، سيجدون
عملًا، فلا عمل في غزة، فقط موت.

ما اسمهم حتى لا أعرف. أفتح الصحف الفلسطينية
لأعرف أسماءهم على الأقل، لكنني لا أجد أي خبر حول
قتلهم. في كل تلك الصحف، لم يرقَ الحادث فرصة أن
يُذكر إلى جانب أخبار موت العشرات. أعود إلى قراءة
ذلك الخبر الضئيل، الذي تكفي ضالته أن تُفتّني وتُفقدني
حصانة حقي في الوجود.

لندن، ربيع ٢٠٠٧

مكتبة
t.me/soramnqraa

غبار

إن أول ما يلاحظه المرء خلال المكوث عند الحاجز هو السيارة التي إلى جانبه: هل تسبقك أم أنت تسبقها؟ وعليه، تتعلق أمانيك وحسرتك. فإن كنت أسرع، تشعر بغبطة قد تمتد إلى يومك كله: إنني محظوظة اليوم، منذ بدايته. وإن سبقتك، يبدأ انهيارك السري: ماذا؟ هل تؤشر إلى الجهة الثانية حتى تتبع تلك السيارة في الصف الأسرع أم إن صفك سيتحرك قريبًا وأنت ستصبح أسرع؟ وما للانهيـار من الآن فصاعدًا إلا ليشتد ولن تستطيع تخبئته أكثر. لا أحد يستطيع. لا أحد يعبر حاجز قلنديا دون انهيار ولو صغير.

مكتبة

t.me/soramnqraa

وتنتظر.

وتنظر.

النظر هو أسهل ما يكون. بل لك الحرية في أن تنظر إلى جميع الاتجاهات، ستعرف جميع أنواع السيارات في البلد، أيها أكثر انتشارًا وأيها أقل، هل تحمل رمز «IL» أم لا، هل رقم اللافتة أصفر أم أخضر، هل القائد امرأة أم رجل، إن كانت امرأة فهل هي محجبة أم لا، وعمرها وجمالها، وإن كان رجلًا فهل يضع نظارات شمسية، هل

هو لطيف، هل بيده محبس، هل ينظر، ثم تنساه مع أقل مؤثر بأن صف السيارات، الذي تشارك فيه، قد تحرك، ولو عبر اختفاء ضوء الفرامل من السيارة أمامك.

أنا تنازلت عن فكرة عبور الحاجز بسيارة. أساسًا، لا أملك واحدة. مرة أو مرتين استعرت سيارة صديق لي، وبعدها، حدث سوء تفاهم بيننا ولم نعد أصدقاء، فأعبر مع مئات الآخرين في مسلك جانبي تراي.

في الصيف، يكون هذا العبور حارًا جدًا. كل شيء يصبح ذا دلالة تزيد الحرارة، خاصة أكياس البلاستيك المرمية على الأرض والمندثرة تحت غبار رمادية ألتها إلى كآبة أشد مما كان لأحدهم أن يتوقع، حتى فكرة أن هذه الأكياس كانت تحوي في الماضي حلوى أو مواد مسلية تعود مستحيلة.

ما يمكن ملاحظته أيضًا خلال النظر المستمر إلى الأرض هو أن لا أحد يرتدي أحذية صيفية. الكعب العالي أو الحذاء المفتوح لا يتماشيان لا مع الموضة الدارجة على الحاجز ولا مع الظروف، والأغلبية تفضل الأحذية الرياضية، إذ قد تغطس القدم كلها في طبقة من غبار تترك على الجسم أثرًا يشبه الهبوط فوق القطن، وإن حاولت التملص منها ولم تمس في هذا المسلك فستسمع، بالإضافة إلى صراخ الشاب الذي يقف في وسط

الطريق يبيع عشرة جربان بعشرة شيكل، جندياً يصرخ
باتجاهك.

على الحاجز، يقف عادة ثلاثة أو أربعة جنود، وبالرغم
من أنهم لا يعدّون أنفسهم ممثلين على خشبة مسرح
قلنديا فإنهم كذلك، فالحضور كبير وقائم بشكل عفوي
وطبيعي. الذي فوق إلى اليمين يتحدث عبر الهاتف
النقال ربما مع صاحبتة، أما الذي يفحص الأوراق فيفعل
ذلك ببطء شديد على الأغلب لأنه سئم هذه المهمة،
وهناك آخر يجلس قرب حرسه بشرود. الرابع إلى يسار
الشارع أدار ظهره فجأة وبدأ يبول، وقد استغرقه ذلك
بعض الوقت، كما لو أنه كان يبول في حمامه الخاص في
بيته، في أقصى ساعات الظهيرة مللاً. بعدها، استدار إلى
الجمهور وأخذ يزرر بنطاله، زرره حتى النصف فقط، ثم
جاء الجندي، الذي كان يفحص الأوراق ويمنح السيارات
الإذن بالعبور، وأعطاه ماءً للشرب.



حلت نهاية الصيف، وعاد الخريف بهوائه الذي
تشتهر به المنطقة.

من بعيد، رأيته الخريف. كنت أتجه بأكثر أشكال
المشي حيادية إلى نقطة التفتيش، ورأيته تلك الريح التي
هبت كزوبعة تصحب غبرة الطريق وأكياس البلاستيك.

توقفت. لم أعد أعرف ماذا أفعل. ماذا أفعل؟ هل أمشي أسرع؟ هل أستمّر بالوقوف؟ هل أمشي كعادتي؟ هل أذهب يسارًا أم يمينًا؟ هل يمكنني العبور بين ذرات الغبار دون أن تمسّسني؟

أقف عاجزة أمامها وأمامي وأمام كل الاتجاهات ولا منفذ، لكنها لم تمهلني وقتًا أكثر ودخلت فمي، ولفّتي.



الغبار. هكذا استطاعت المأساة أن تلف الجميع، حتى أولئك الذين يمشون بأشد الطرق حيادية.

شعري ووجهي ويدي وملابسي كلها مثقلة بالغبار واليأس.



هنالك قرار ذاتي يقضي بأن أقطع منطقة الحاجز مشيًا على الأقدام حتى نهاية صف السيارات ولو كان سينتهي في رام الله. لست قادرة على رؤية سيارات تنتظر، لذلك أمشي بثبات كأن لي هدفًا، في هذه الحالة، هو معرفة نوع آخر سيارة تقف في الصف.

سوبارو بيضاء طويلة يركبها رجل في الأربعينيات وزوجته إلى يمينه. بين مقعديهما، تقف فتاة صغيرة كعادة الأطفال، تنظر إلى صف السيارات أمامها. قربهم، أقف أنتظر سيارة أجرة.

سأوقف السيارة التي لا تزمري، أولاً لأن ذلك يعني أن السائق غير لحوح ولن يزعزع هدوءي الداخلي مع التزمير إثر رؤيته لأي شيء متحرك وممكن أن يدفع أجرة راكب، ثم إن أصدقائي دائماً متأخرون، ولماذا أنا التي تصل في الوقت فأعاني الانتظار والشك حول الساعة والمكان واليوم والوضوح؟

لن آخذ أيضاً سيارة لون لافتتها أصفر لأنها من القدس، وأهل منطقة رام الله بحاجة ماسة أكثر إلى أي دخل، ولن آخذ سيارة من نوع غير مرسيدس سبعة ركاب لأن نوع سيارات الأجرة هذه قديم وقائديها رجال مسنون، أما السيارات الحديثة فأصحابها شباب زعران. كل هذه الأيديولوجيا تستغرق خمس عشرة دقيقة، وكما من زوابع الغبار التي لا خيار أمامها إلا التراكم فوق. جاء السائق المثالي ودفعت له، لكنني قدرة وأكاد أمزق نفسي لشدة ما لا أطيق ملمسي.

وصلت، ولاحظت صديقتي مدى قذارتي، فعرضت عليّ أن أستحم. قلت ربما شعري فقط.

أخذني ابنها الصغير إلى الحمام ليساعدني على غسله، ذلك أن الأمر ليس بالمألوف لديه، إلى درجة عدّه فيها لعبة أطفال. وضعت رأسي تحت الماء، ثم أخذ هو يسكب صابون الشعر على يده، وسكب نصف العلبة، فصرخت.

ثم قلت له بأقصى قواي:

«حبيبي، لا يجوز وضع الصابون هكذا.»

وكانت هذه الجملة كافية لأن يخاف ويتركني وحيدة تحت الماء. على الأقل لا تزال أخته في الخارج تنتظرني لتمشط شعري.

كم من الوقت لم يمشط أحدهم شعري؟



لا وقت لنقرأ قصة لأنه يجب أن أزور أصدقاء آخرين. تبقى لي ثلاثة أصدقاء على الأكثر، بعدما أدخلت بعض التقليلات على القائمة، أزورهم مرة في الأسبوع في المشوار ذاته لكي أعبر الحاجز أقل ما يمكن من المرات، وهكذا، تحولت زياراتي إلى سباق مع الزمن. صرت أقطع أحاديثهم في النصف، لم أعد أستمع حتى نهاية الجمل، ولا لموضوع حتى النهاية، رؤوس أقلام فقط، منها رؤوس أقلام مكسرة. بعد كل ساعة ونصف يجب أن أتحرك. ساعة، على الأقل ساعة. نصف ساعة للطريق بين كل بيت وآخر.

في كل مرة أغادر بيت صديق، يعود إليّ تساؤلي: لماذا جئت؟ أصبحت هذه الزيارات في إطار إسقاط واجب وتحذّر للحواجز. ماذا أتحدى بعد إن كانت هذه الحواجز قد نزلت داخلي؟

لم أعد أدري حتى إن كان أصدقائي يرغبون بهذه الزيارات أو ما زالوا يحبونني. أنا لم أعد أشعر.

لكنني سأشعر. سأعود الأسبوع القادم. خصوصًا صغيري الذي صرخت عليه إن وصلت المرة القادمة قبل الغروب فسندهب معًا ونشاهد الغروب.



ربما أستطيع تحمل العذاب، لكنني لا أريد تحمل الغبار فوقه. قرار ذاتي جديد: من الآن فصاعدًا، سأدور مع قبعة تفاديًا له.

بالبداية، خجلت من وضعها، هذه القبعة، لكنني قررت تخطي حاجز الخجل هذا، فوضعتها في حقيبتي. سأخرجها عند الحاجة.

في الطريق، عرجت على مكتب البريد وبحوزتي صندوق أود إرساله إلى خارج البلاد، كما عليّ دفع فاتورة الهاتف. مع الوقت، صار حساب الهاتف أقل ورناته أقل.

في البريد، رحت أقف في صف قصير. لم يعد يهمني كم من الوقت سأقف. الانتظار أصبح أسلوب حياة.

ثلاثة أمامي وأنا ألوذ بصمتي. أقرأ كل الإعلانات في المكان. هنالك فتاة صغيرة تتعلق بجلباب أمها الكحلي، تنظر إليّ دون حياء، تقف أحيانًا على قدم واحدة وفمها

يتحرك كأنما يردد أغنية ارتجلتها للتو ولكنها بلا صوت،
تحرك شفتيها فقط وتنظر إليّ وإلى الصندوق. أمها تهمس
في أذن امرأة أخرى بجانبها، ولا أدري إن كانت هي في
الصف أيضًا، عندها، سيكون أربعة أمامي. أمامهما رجل
وابنته، هي تروح وتجيء في المكان، ثم تعود وتهمس له.
لاحقًا، انضمت إلينا امرأة أخرى.

أغلب الواقفين في الصف فلسطينيون. الإسرائيلي
الوحيد هو في أول الصف، وصوته وحده يملأ الفضاء
بعبرية مثقلة بلكنة أمريكية، بينما البقية يهمسون.
ينظرون حولهم ويعلقون على الأشياء بهمس.

وأنا إن تحدثت عندما أصل إلى الوظيفة فكيف
سيخرج صوتي؟ أحاول تخيل صوتي، أعيد موسيقاه
في رأسي. سأحدث بالإنجليزية. هل سأقول مرحبًا أم
سأبشر بالموضوع؟

الطفلتان تنظران إليّ ولا أدري لماذا، لا أريد أن أبتسم
لهما. تستمران بالنظر إليّ، خصوصًا تلك التي أمامي. أعيد
النظر إليها مطولًا، وأرى قليلًا من الخوف في عينيها،
فتغرورق عيناها بالدموع.

أعيد عينيّ إلى الأسفل، وتسقط من أنفي نقطة على
الأرض بين قدمي. الصغيرة تستمر بالنظر إليّ.

يترك الإسرائيلي. يتقدم الرجل مع الطفلة ويقول بصوت متردد وهادئ بالعبرية والعربية وكل ما أمكن إنه يريد سحب كل ما في حسابه. الموظفة تقول بعبرية واضحة وحيادية إنه لا يوجد عندها كفاية من النقود في الصندوق. هو لا يفهم وهي تعيد الجملة نفس. يبقى واقفًا صامتًا. يسأل المرأتين أمامي عما تقول، وتقولان إنهما لا تعرفان العبرية. تقول إحداهما ربما المرأة تلك، مشيرة إلى المرأة خلفي، وتلك ترد أنها تعرف قليلًا وتتقدم. وبجهد وببطء وبهمس، تحاول أن تسأل الموظفة ما الذي قالته.

لم يتوجهوا إليّ. أنا لا أساعدهم لأنهم لم يتوجهوا إليّ. أنا أعرف العبرية جيدًا، لكنني لا أساعدهم. صامته، أسمع جهودهم جميعًا وأبقى صامته. أنكرهم.

أنا لست متأكدة مئة بالمئة أن الموظفة عنصرية، ولكنني خائفة. أخاف على صندوقي ألا يصل إلى هدفه المرجو في الوقت المحدد لأنني عربية. ستهمله، وستنساه لأسابيع. لن يحظى بالعناية التي يحظى بها كل صندوق آخر غير عربي. أستمّر بالصمت.

إنني أخبئ عروبتى من أجل صندوق. أختبئ خلف صمتي، لا أفتح فمي. أبرر ذلك بأن أحدًا لم يتوجه إليّ، بينما لا أستطيع صرف عيني بعيدًا عن المشهد. أتابعه، أتابع جهودهم، أتابع كلماتهم المترددة الهامسة، أتابع خيانتى.

كيف لي أن أعود وأستخدم العربية بعدما خنتها
الآن؟

ليتني لا أتحدث أكثر. ليتني تحدثت قبل ثوانٍ. لكنني
صامتة، أشعر بأسناني وبفكيّ جيدًا.



كان الحاجز قد سكن فجأة. تنبّهت أنه لم يعد هناك
مارة في المسلك. الكل واقف بعيدًا. هذا سيكون إطلاق
النار، لكنني أنا مع قبعتي الواقية من الغبار، فمشيت.
كان الأولاد يختبئون خلف السيارات يحملون بأيديهم
الحجارة، وأنا أعبرهم.

واحد همس لي: «انظري .. انظري!» قلت له: «لا،
اتركني». كان يشير باتجاه الجنود. إلى ماذا أرادني أن
أنظر؟ إلى جندي يصبو عليّ؟

وضعت يديّ على أذنيّ، خفت أن أسمع صوت
الرصاص التي قد تقتلني، قلت ربما أستطيع أن أمشي
بين الرصاص، وإن لم أستطع فأقصى ما سيحدث لي هو
الموت.

مشيت، زمرت لي بعض السيارات، ولكنني لا أصعد
سيارة تزمري. أحد السائقين يؤشر لي بحركة من يده أنني
قد أموت، وأنا أقول في داخلي: «وأنت تزمري».

مشيت ومشيت، إلى أن عاد الصمت الحنون إليّ. لقد انتهى صف السيارات. كان طويلاً. آخر سيارة فيه ألفا-سود بيضاء.

وقفت أنتظر، ولا يزال صوت إطلاق الرصاص يثقل الجو من بعيد. إلى جانبي، وقف ولد يتمرن على ضرب الحجارة وكاد يصيبني، فاعتذر بعض الأولاد قائلين إنه أحول.

أخيراً، ظهرت من بعيد سيارة أجرة قديمة لافتتها من رام الله، تجر خلفها صمّتا مشوباً بعودة تدريجية إلى الحياة. أشرت إلى السائق قبل أن يفكر حتى بأن يزمر.

كان عجوزاً. قاد السيارة ببطء. بعد وقت، توقف. صعد شاب.

عرج على محطة الوقود وعبأ سولار. سيارة أخرى جاءت أمامنا وأخرى خلفنا. لم نعد نستطيع التحرك. الراكب من الأمام يحاول الحديث معي ولا أدري لماذا، هل لأنني كنت أضع قبعة؟ هل لو كنت فتاة محجبة كان سيتحدث إليّ؟ أجيبه بخشونة. يحاول الاستمرار بالحديث حول مضار استنشاق البنزين وأنا لا أجيب. ماذا يعتقدني ليتحدث معي؟ سألني عن الحاجز وقلت كان إطلاق نار. قال شيئاً، ولشدة عدائي حتى لم أسمع.

في المحطة، ينظر إليّ الذي يعبئ الوقود. ماذا؟ هل هنالك دماء تسيل من وجهي؟ ماذا هناك؟

أحاول أن أنظر إلى الكتابات على الحائط. كم خطه
جميل ذلك الذي كتبها!

عاد السائق بعد أن غادرت السيارة التي من الخلف،
فعدنا إلى الطريق. بعد وقت، توقف. نظرت حولي ولا
أفهم السبب. لا أحد في الشارع.
لا أحد أبدًا.

بعد تلقت شديد، رأيت امرأتين بعيدًا تمشيان
ببطء باتجاهنا. لست متأكدة أننا ننتظرهما هما، هما لا
تسرعان، وغير معقول أننا ننتظرهما.

هل هو مجنون هذا السائق؟ أبحث عن اسمه. اسمه
أحمد محمود حمد الله.

هل هذه مزحة؟

تمشيان الهويني هاتان المرأتان، وأخيرًا، تصلان.
تدفعان الكرسي فيضرب بظهري. يمكنني أن أقتلكم
جميعًا.

نعود نمشي ببطء.

العب، العب يا أحمد، العب بحياة الناس. ماذا لديك
تجاههم بعد أن دفعوا لك الأجرة؟

مرة أخرى، يتوقف. لا أحد في الشارع. لا، بل أرى
رجلاً يخرج من حانوت، ولكنه يمشي باتجاه سيارة
خاصة، يفتحها، يشغل المحرك، ثم يغادر.

ونحن ما زلنا ننتظر. ولكن من؟

امرأة بعد وقت تخرج من زقاق. كيف رآها؟

إن أحمد محمود حمد الله، إن حدث وجُنِنت،
سيكون أحد الأسباب الرئيسية التي أدت إلى جنوني.



في طريق العودة، أركب سيارة ذات لافتة صفراء مع
«IL» جديدة سائقها أزعر، هذا لأعلن أنني أكره نفسي.

سيارة الأجرة هذه تخالف كل قوانين السير والأخلاق
حتى تتجاوز صفوف السيارات الطويلة، وأنا داخلها،
أقول من ألمي: «أنا لا أشعر».

فجأة، طفلة معنا في السيارة، بينما نحن واقفون على
الحاجز، تسأل بصوت دلع: «لماذا نحن واقفون هنا؟»

تخيلت نفسي أشرح لها، ولكن بتفكير ثانٍ شعرت
بالغيرة لأنها لم تعبر طريق المعرفة ذاك، بعد.



أصل إلى البيت، وما لي إلا انتظار مكالمة من حبيبي.
وخلال هذا الانتظار، يصبح صوت انسياب المياه في
المصرف مثل رنين الهاتف.

لم يعد يكلفني العيش شيئاً سوى الدمار النفسي.



كل حركة ولو بسيطة صارت تثير غبارًا مروعًا في البيت، فبدأت بحملة تنظيف كاملة.

بعدها، حملت كل ما لمس جسمي ولو للحظة. وضعته في حقيبة كبيرة، وأخذته إلى رام الله للغسيل، وحددت موعدًا مع طبيب الجلد.

أشعر أن طبيب الجلد، وهو صديق قديم، لا يحدثني بآرائه السياسية بشكل مفتوح. هل يشك بي؟ أطالب بمرهم رغم اعتراضه. يقول إنه لا توجد مشكلة عندي. أستسلم، ونتحدث عن أمور الأدب.

أخرج، أمشي بثبات في الشارع، أنظاري فوقه ولا أستطيع منعها من رؤية آثار بصقات العابرين. أشعر بلعابي في فمي، سأتقيأ. أرفع رأسي قدر استطاعتي، أميله قليلًا، أرى رسمًا كبيرًا معلقًا في دكان لطائرة قذفت صاروخًا صنع ثقبًا في صدر طفل.



في طريق العودة، تفوح رائحة الغسيل في سيارة الأجرة وتجعلني أشعر بنقاء.

أعود وأستعيد ما قالته لي للتو صديقة أصلها من نابلس إنها مشتاقة إلى أهلها هناك ولا تستطيع السفر لرؤيتهم بسبب الحواجز، فلا تسمح لنفسها بالاشتياق بشدة إليهم.

لكن لماذا أنا متأثرة من كل هذا؟ يمكن لأنني أفكر أكثر من اللازم، أشعر أكثر من اللازم، الكثير من أكثر من اللازم.

متى سأعود إلى اللازم، أم إنني أضعته إلى الأبد؟



عشرة جربان بعشرة شيكل، لا يزال العالم كما هو.

عبرت الحاجز، فغرقت في غبار المسلك. لقد وصل عمقه هذه الفترة إلى عشرة سنتيمترات، مخملي ناعم تحت القدمين.

لم أكن هذه المرة لأبالي بالغبار، بل كنت أدعوه، لأنني عائدة إلى البيت وسوف أستحم. لكن ماذا عن البؤس؟

فكرت أن أتجاهله بأن أعبر الحاجز باعتيادية. ومن أجل تحقيق ذلك، ما عليّ إلا أن أجمد كل أحاسيسي في تلك الأثناء، أنفيها لبعض الوقت فقط.

ثم خفت، خفت أنني بعد أن أعبره، بعد بضعة أمتار، لن أستطيع استرجاع قدرتي على الإحساس ثانية.

ماذا لو فقدت ما تبقى لديّ من أحاسيس؟

لديّ باقي ما يكفي لأن أحفز نفسي وأشجعها كل يوم على عيش اليوم الذي قد بدأته، من أول اليوم إلى آخره، هذا أقصى ما أستطيعه من رغبة في الوجود.



أردت أن أكتب شيئاً ما خلال سفري في سيارة الأجرة،
لكنني امتنعت خوفاً من أن يعتقد الركاب أنني أكتب
معلومات تشي بهم، ورجعت أنظر إلى حذائي.

أرى أن حذائي قذر، مغبر. أريد العودة إلى البيت في
أسرع وقت ممكن كي أنظفه.

كل شيء قذر، وبشدة، لكن بلا مفاجئة. للغيرة
أسباب، بل كل الأسباب، إنها الدليل على عبوري الحاجز
مثل الجميع، يجب أن أتحمّلها قدر الإمكان، هي أقصى ما
أستطيع أن أفعله.



وروى البهيقى قال: «وخرجت السمراء بنت قيس،
أخت أبي حازم، وقد أصيب ابنها، فعزّاها النبي صلى الله
عليه وآله بهما، فقالت: كل مصيبة بعدك جلل، والله
لهذا النقع الذي أرى على وجهك أشد من مصابهما».

والنقع هو الغبار كما ورد في الصحاح.



عدت وأخرجت كتيباً حتى أبعد أنظاري عن موضعها
السابق وما حط عليه من غبار. يسرد الكتيب الفعاليات
الثقافية في البلد. قلّبتّه عدة مرات، ثم أعدته إلى حقيبتي
لاحتمال أنني قد أحتاج يوماً ما إلى رقم هاتف مطحنة
قهوة جاء في إعلان على إحدى صفحاته.



من السيارة إلى بيتي، وكالعادة، هو أبعد البيوت.

أعبر السوق. كأنما أكثر من اللازم أعين تنظر إليّ. ألمح مجموعة من الشبان. فجأة، ينهض أحدهم بعد إشارة من يد الآخر. أعتقد أنه سيطلق النار عليّ. ولكنه يعبرني. شاب آخر ينهض، يعترض طريقي، فالتفت مستنكرة. لم يقتلني.

أتوقف لشراء ربع كيلو قهوة، ثلثين شقرا ثلث محروقة مع زيادة هال، وأشعر أن هنالك ابتسامة غريبة على وجه البائع. وعندما يعيد إليّ المتبقي، يرفع يده في الهواء ولا يسمح لها بلمس يدي. هل هو بقصد لا يود الاقتراب من يدي كأن مرضاً قد علق بي؟ كأنه مشمئز!

أكمل طريقي مشياً، والطريق بعيدة إلى البيت. لا يجب أن أركض، يجب أن أحافظ على رصانتي. عيناى لا تفارقان الأرضية، أُلَبِّ في نفسي انعكاسات شظايا الزجاج المنثورة فوقها، من شظية إلى أخرى أنقل عينيّ.

عليّ ألا أمر في السوق مرة أخرى. يجب أن أغير طريقي. حتى نهاية الطريق، أحسب المرات المتبقية التي سأضطر فيها للخروج من البيت، ولا أدري ولا أعرف كيف سأخرج أكثر.

أحاول أن أستمر بالمشي بحيادية.



أجلس في فراشي أراقب أرضية الغرفة، لا أستطيع
النظر أكثر إلى السقف.

يعبر الوقت والثلاجة فارغة. لا شيء للأكل في البيت.
يجب أن أنزل إلى السوق. أحاول أن أجد بعضًا من صفاتي
القديمة التي كانت تدفعني إلى النزول يوميًا إلى السوق،
وأجد فقط قليلًا من الحيادية، فأضع حذائي وأخرج.

ألتقي ببعض الجارات. يقلن إنهن لم يعدن يرينني.
يسألنني أين اختفيت، ولكنني لا أريد الحديث معهن.
أجد أنني لم أعد أطيعهن.

لا أعرف ماذا اشتري، لا رغبة عندي لتناول أي شيء.
أمر في سوق اللحامين. لا أجد الشجاعة الكافية من أجل
رفع عيني ورؤية البضائع. أحاول ألا أفقد توازني، أن أسير
كفتاة محتشمة، كأنني لست غريبة عن المكان، أحاول
أن أمثل نوعًا من الألفة، ولذلك أذهب إلى اللحام نفسه.
اللحوم تحيط بي. فخذ عجل أحمر، حوافر، السنة،
أعين جامدة في رؤوس خراف مقطعة. لن أستطيع. لا
قوة لدي لأن أقطع اللحم، ذلك فوق طاقتي. أعبر السوق
وأعود إلى البيت.

وبينما أنا أمشي، إذا بصبي يمر بي ويطلق النار عليَّ
بإصبعه، ولا أدري ماذا فعلت له.

أعود والعرق يتصبب من على وجهي.

هناك خبر تركته صديقة على آلة التسجيل، تسألني
متى سأتي إلى رام الله.

•

مرة أخرى أعبّر السوق. أحدهم يناديني. ألتفت، ولا
أرى أحدًا. أعود إلى البيت.

•

أشعر كأني بعد بكاء، غير أنني لم أبك.

•

أتردد في الخروج من بيتي. إنني مليئة بالفزع حتى
أكاد أختنق. إنه يتمركز في جبيني على عينيّ وأنفي،
والاختناق في حلقي. الإمكانية الوحيدة، أفكر، لزوال هذا
الفزع هي قطع رأسي.

•

الوقت ليل. يوقفني بعض الجنود. يسألني أحدهم
لماذا أحمل جواز السفر بدل بطاقة الهوية، أقول لأنني
حرة. يعيد سؤالي، فأرد: «لأنني حرة لأنني حرة لأنني حرة
لأنني حرة لأنني حرة. هكذا. لأنني حرة»

يطلب مني أن أقف جانبًا. أنا أصرخ وأصرخ وأصرخ.
هكذا. لا شيء أعمله عدا الصراخ. أصرخ مثل المجنونة،
أصرخ لأنني لست عميلة. يأتي الضابط ويعيد إليّ الجواز

بعدما لا يجد سببًا لإيقافي، ولكنني لا أزال أصرخ، ويطلب مني المغادرة بأدب. ولا أدري لماذا يتحدث معي بأدب. ماذا لو مر أحدهم ورأى الضابط يتحدث معي بأدب؟ وماذا لو عاد هذا الضابط وتحدث معي بأدب في المرة القادمة؟ وماذا لو حفظ اسمي الشخصي وناداني به بينما أعبر وسط المئات، أن يسألني كيف حالي اليوم؟

ماذا سأقول للعابرين؟ سأصرخ مرة أخرى، وبدل أن يقولوا إنني عميلة، سيقولون إنني مجنونة.



صحت على صوت جرو يبكي.

تحركت من فراشي بسهولة غير معهودة، وأخذت أدور بحثًا عنه، لأهرب إلى نجدته هذا الجرو الباكي. لكنني لم أنجح بمعرفة الاتجاه الذي يأتي منه.

صعدت إلى السطوح، ورحت أدور بعيني وأذني بحثًا عنه، وهو لا يزال يبكي ويبكي، كما لو كان يبكي عني.

فجأة، رأيت امرأة تخرج إلى سطح أحد البيوت البادية من حارة اليهود. لوحت باتجاهها، وسألتها بالإنجليزية إن كانت تسمع ذلك الصوت، لكنها تجاهلتنى.

وشعرت بحزن.

أنا لم أكن أطالبها بدولة مستقلة عاصمتها القدس،
كنت فقط أحاول معرفة مكان الكلب الباكي.

عدت إلى فراشي. وبينما كان عويله المستمر يعود
ويغلف رأسي ويحرقه بملوحة بكائه، كنت ألقى بعينيَّ
على أرضية الغرفة، أفتح واحدة وأغلق الثانية، ألاعب
أقدام الكرسي والطاولة.

القدس، صيف ٢٠٠١

التحليق بعيداً

طائرة في السماء، تهبط، تمس الأرض، تحتك بها
وتخدشها، ثم تهدأ. الأقدام تطأ سجاد الممر، بعضها
يتجاوز الآخر فتتفرق، ثم تتراص مرة أخرى عند نقطة
فحص جوازات السفر.

سين: لماذا جئت؟

مكتبة

t.me/soramnqraa

جيم: صمت.

سين: صمت.

جيم: صمت.

سين: لزيارة عائلتك؟

جيم: نعم.

سين: صمت.

قدما تبتعدان.

منطقة الجمارك تختتم منطقة السماء الحرة. لا أحد
خلف أجهزة الفحص، ولا شيء للتصريح عنه للأجهزة
المهجورة. الباب الإلكتروني الأبيض يستشعر مقدم أحد
وينفجر بحدة. أهلاً وسهلاً بإحدى عشرة لغة تعلو حائط

قاعة استقبال الوافدين المكتظة، لكن أحدًا لا يتحرك لاستقبال الخارج/ة للتو، وتبقى البلايين مشدودة في يد الطفلة، يهزها الهواء المنبعث من جهاز المكيف بعصبية. برد. رجال الأمن في كل صوب. تتلاقى الأعين، واثنان من بينها تحاولان تخبئة فزعهما. المذنب/ة وحده/ا هي/هو التي/الذي ت/يخاف. المذنب/ة من المهد إلى اللحد، كحقيبة منسية في حافلة حمراء في مدينة بعيدة قد لا يخطر اسمها على بال أحد.

المذنب/ة ت/يعبر الحشد بعينين خائفتين. التفكير في أشد الأمور مللاً لا بد أن يخدع قوات الأمن. عدد اللفافات الورقية في الحمام في الطابق الأسفل لا بد أن يكون خمسة. ما دام هنالك في العادة تسع لفافات مرتبة في ثلاثة صفوف وقد انتهى الصف الأول وسُحِبَت لفافة واحدة من الصف الثاني فلا بد أن يكون قد تبقت خمسة فقط. لونها برتقالي. انفراج آخر، باب إلكتروني وعبور منطقة الخطر. سيارات الأجرة تقف بيضاء في صف طويل كأسنان نظيفة في فم مفتوح تحمل طيف أول ابتسامة منذ لحظة الهبوط. يد تتلقف الحقائق وتلقي بها إلى صندوق السيارة الخلفي. ربما يكون قد لحق ضرر بزجاجة العطر الصغيرة. داخل السيارة، تُحيي بعض روائح عرق الركاب بعضها الآخر، والمكيف من حولها يداعبها، ولاحقًا، يهدئ من روعها، هذه الروائح القذرة. تنطلق السيارة بسرعة هائلة.

من النافذة، يطل بلد الموطن. تلال، وبيوت، ومرة أخرى طرقات جديدة، ثم حاجز. الانتقال إلى سيارة أخرى، ومرة أخرى، طرق ملاءى بالحفر يتفادها سائق حفظها عن ظهر قلب. بيوت. أكوام نفايات. ثم إسمنت على طول الطريق يفصل بين المسار الأيمن للشارع والمسار الأيسر. العينان تكادان تخرجان من محجريهما بحثًا في ما تبقى من المكان. نصفه بالضبط. وتجهد العين اليمنى خلال هذا البحث أكثر من العين اليسرى التي تصبح كسلى، إذ لا شيء لتراه عدا لون رمادي خشن.

ثم حاجز. الأقدام لا تعرف أين ستجد موضعًا لها في اللحظة التي تترك الأرض. تبحث، تتراقص، تحتال، تتنازع مع الأقدام الأخرى ثم تهبط فوق أرض المعبر الضيق لأقل من لحظة، فقط لتتركها مرة أخرى. من بعيد، ترقب العابرين الدواجن المحبوسة في أقفاص متراصة. استقلال سيارة أجرة أخرى إلى العمق، حيث لا يمكن للسفر أن يستمر أكثر.

يد مقبوضة تقرع الباب. خشبه القاسي يؤذيها. يفتح الباب وتجتازه القدم إلى الداخل. الأقدام تقف بعضها قبالة بعض بثبات إلى أن ينتهي العناق هناك في الأعلى. ثم توضع ساق على ساق وساق قرب ساق وساق بعيدًا عن ساق. الأم، والأب، والابن/ة. الطعام لذيد. الفم يألف مقدار زيت الزيتون فيه، والملح زائد كالعادة. خيط تنظيف الأسنان لتنظيف الأسنان. الأسنان نظيفة.

كان يمكنها بالمقدار نفسه أن تكون قدرة. لكنها نظيفة
والسعادة غامرة. البحث عن مفتاح الضوء لإطفاء الضوء.
إلى النوم.

ولا. الجسم أرق. قلق. يجب الهروب من كل هذه
الغربة. الآن في منتصف الليل. عبور كل الحدود الصغيرة
ثم الكبيرة، حتى الخلود إلى النوم، والصحو مرة أخرى مع
طعم مخجل في الفم، وفي الروح. والإفطار جاهز منذ وقت.
وبارد. غير أن الشهية تُثار بصحن البندورة المقلية على
نار عالية يسبقها إلى الزيت الحار قرن فلفل غير مقطع.
وفي الخارج، ريح تشد أغصان الشجر بقسوة، تحتها،
شقائق نعمان تحوم حولها حشرات صغيرة ستلتصق
ببتلاتها وتمتص نضارتها. تحولها إلى رمادية هزيلة. هي
والحشائش والأشجار والحقول والبيوت والمخلوقات،
جميعها هزيلة منتهكة في هذا الربيع الدافئ. ولا للألم،
إنما تناول أكبر قدر ممكن من الطعام، فالطعام شهى.
مثلاً، الآن، أن تُغسل المعدة بحبة برتقال. ويذوي قشر
البرتقال، ثم ييبس. الآن، البرتقال غير مبالٍ. والمزارع
يقول: «تركناه على أمه». وأمّه، الشجرة، ضفة، لذا هو
بحاجة إلى تصريح. إنه برتقالي. لكن البرتقالي غير مبالٍ
وسيموت على أمه. والحمامة في السماء ستشهد ذلك،
كل تلك النقاط البرتقالية التي عما قريب ستخضر عفناً.
وقد تهبط فوق أحد الأغصان، ثم تقفز إلى الأرض. وإنها
حمامة عرجاء. أصابع قدمها اليمنى مبتورة. تطير بين

الأماكن المبتورة حاملة روحها المبتورة. ثم تحط فوق الأسلاك الشائكة التي تتلقف الأكياس البلاستيكية وتداعبها هي والريح حتى تمزقها إربًا. ثم تترك الحمامة الأسلاك وتُحلّق إلى أعلى مما يمكن للعينين متابعته. بينما يستمر المسير، إذ لا يمكن للمسير أن يستمر طويلًا، لكن يمكن في دوائر. انحناءاتها خفية. المشي والوقوف والجلوس على غير هدى، لكن في دوائر، في مدينة تنعكس مشوهة على زجاج نوافذ سيارات تقف ساكنة في الشوارع، والشمس مرمية فوق أغطية محركاتها، والحمامة العرجاء تقطع السماء ذهابًا وإيابًا، فتسقط ظلّاتها على الإسفلت خلسة.

وخلسة، يتسرب الأمل إليها، المدينة غير المحكمة الإغلاق، ليؤكسد محتوياتها، يُعفّنّها تمامًا. وسكانها ما زالوا يهلكون الهواء بأنفاسهم. ولو أحكم إغلاق الغطاء فوقها جيدًا، عندها، لن يُضطرّ رجال الأمن للقلق أكثر أو للبحث عن مسافر/ة ت/يحسب عدد اللقافات الورقية في الحمام في الطابق الأسفل. ويربض النمر مع الجدي.

أما أنت فابتعد/ي، عد/عودي إلى مقعد ٣٨ د في الطائرة التي ستقلع بعد الظهر، إن كنت تريد/ين أن تنجو/تنجي بريشك، يا حمامة عرجاء.

لأنجنبرويخ، صيف ٢٠٠٥

هذا البحر لمحمد الخطيب

ولكن من محمد الخطيب؟ نعرف فقط أنه شاب عمره ٢٠ عامًا، ومن الخليل، وأراد الذهاب إلى البحر. من ثم يمكننا الاعتقاد بأنه فُكّر مطولاً حول كيفية الوصول إلى هناك، ويمكننا أن نتخيل توافر إمكانيتين في الظروف الحالية في ما يتعلق بالبحر الذي يمكن لمحمد الخطيب زيارته.

الإمكانية الأولى هي بحر غزة. ووفق ما يشير الاسم حرفيًا، يمكن الوصول إلى بحر غزة هذه الأيام من قبل من هم موجودون هناك فقط. فكيف يمكن لمحمد الخطيب أن يصبح موجودًا هناك؟

أولاً عليه التوجه إلى ما يُسمّى «جسر النبي» كي يتمكن من عبور الحدود، التي يسيطر عليها الإسرائيليون، نحو الأردن، هو وأصدقاؤه، الذين سيُمنع واحد من بينهم من عبور الجسر باتجاه الأردن من قبل المخابرات الإسرائيلية، ومن هناك، يمكنهم التوجه إلى مطار عمّان، ومن ثم إلى مطار القاهرة. لكن قبل ذلك، على محمد الخطيب الحصول على تأشيرة لدخول مصر، وهو أمر شاق جدًا. مع ذلك، تجدر المحاولة، وهو ما سيفعله،

وبالفعل سيحصل عليها، هو وأصدقاؤه، ذلك عدا واحد من بينهم، يندرج اسمه على قائمة المخابرات المصرية. «لكن تلك الساعة مع البحر هي ما يجدر أخذه بالحسبان».

من القاهرة، سيتجهون إلى العريش، ذلك عدا صديق واحد، سيؤقف في مطار القاهرة بالرغم من وجود تأشيرة بحوزته، إلا أنه لم يتصرف بودّ مع قوى الأمن المصرية. عندها، على محمد الخطيب التوجه إلى رفح، حيث سيجد المعبر مغلقاً، ويتم أمره بالعودة من حيث أتى.

لكنه قد يعثر على أحدهم، الذي سيساعده في دخول غزة عبر الأنفاق، وهو أمر بات شديدة الصعوبة في الآونة الأخيرة، مع إعلان القوات المصرية حربها المدعومة من قبل الولايات المتحدة و«إسرائيل» ضد الأنفاق التي تقود إلى غزة. مع ذلك، وبعد عدة أيام من السفر، سيصل محمد الخطيب، من دون أيّ من أصدقائه، إلى بحر غزة، في حوالي الساعة الخامسة عصرًا من ١ أيلول ٢٠١٦، وسيكون أمامه ساعة كاملة قبل أن تحل العتمة ومعها القصف المدفعي الإسرائيلي الثقيل.

لكن تلك الساعة مع البحر هي ما يجدر أخذه بالحسبان، ويمكن حسابها كستين دقيقة أو ثلاثة آلاف وستمئة ثانية، وهو وقت لا نهائي. من أمكنه من قبل أن يحسب حتى الرقم ٣٦٠٠، عدا أمواج البحر؟

الإمكانية الثانية هي بحر يافا. ويمكننا أن نتخيل، في الظروف الحالية، توافر إمكانيتين في ما يتعلق بمقدرة الوصول إلى هناك.

الإمكانية الأولى هي أن والد محمد الخطيب، أو عمه، أو ابن خالته، أو صديق مقرب لواحد من هؤلاء، أو أحد معارفه، لديه «خط مفتوح» مع أحد أصحاب المناصب الرفيعة في مكاتب السلطة الوطنية الفلسطينية، أو مع أحد العملاء الذين يحتلون أدنى المناصب ويؤودون السلطات الإسرائيلية ببعض المعلومات.

هذا الخط سيوفر لمحمد الخطيب تصريحًا لدخول المناطق الخاضعة للسيطرة الإسرائيلية، ذلك عدا منطقة «د»، من الساعة السابعة صباحًا وحتى الساعة السابعة مساءً، متيحًا أمامه فرصة زيارة البحر. ماذا عن أصدقائه؟ «إنما كما في الحب، حين يعلن أحدهم أن الثاني له».

حسنًا، هم أصدقائه، وسيحصلون على تصريح أيضًا، سوى واحد من بينهم، يندرج اسمه على قائمة المخابرات الفلسطينية. صباح ذلك اليوم، الموافق ١ أيلول ٢٠١٦، سيباشرون رحلتهم معًا مبكرًا، ليكونوا في مقدمة دور المنتظرين على حاجز بيت لحم. وربما سيؤخرون قليلًا، ويمنع أحدهم من عبور الحاجز بالرغم من حيازته «تصريحًا»، وبغير سبب واضح.

لكن في حوالي الساعة الخامسة عصرًا، بعد إيقافهم هنا، وتفتيشهم هناك، واعتقال أحدهم هنا، وآخر هناك، سيصل محمد الخطيب إلى بحر يافا، وهو اسم غير حرفي تمامًا، بل مجازي، فيافا تقع على بعد كثير من الكيلومترات، وسيكون أمامه ساعة كاملة، تاركًا ساعة أخرى لطريق العودة قبل أن تنتهي صلاحية تصريحه.

لكن تلك الساعة مع البحر هي ما يجدر أخذه بالحسبان، ويمكن حسابها كستين دقيقة أو ثلاثة آلاف وستمئة ثانية، وهو وقت لا نهائي. من أمكنه من قبل أن يحسب حتى الرقم ٣٦٠٠، عدا أمواج البحر؟

الإمكانية الثانية هي أن والد محمد الخطيب ميت، وكذلك عمه وابن خالته، وصديقهم المقرب، وأحد معارفه ممن قد يكون لديهم «خط مفتوح» مع أحد أصحاب المناصب الرفيعة في مكاتب السلطة الوطنية الفلسطينية، أو مع أحد العملاء الذين يحتلون أدنى المناصب ويؤوّدون السلطات الإسرائيلية ببعض المعلومات، والذين ماتوا هم أيضًا، لكن ليس ابن الجيران، الذي لم يحتج إلى أيّ من هذه «الخطوط» للوصول إلى «الداخل» حيث يعمل من دون تصريح، ويعرف أيضًا كيف يمكن العبور إلى هناك من دون تصريح. وهكذا، سيقضي محمد الخطيب ليلة بطولها مع ابن الجيران هذا ليتعلم الطرق «غير القانونية» التي ستمكنه من بلوغ البحر.

ويمكننا أن نتخيل، في الظروف الحالية، توافر
إمكانيتين في ما يتعلق بطرق التهريب هذه. الإمكانية
الأولى هي أن يسافر في سيارة ذات لوحة رقمية صفراء.
ولمحمد الخطيب صديق لديه مثل هذه السيارة، ورغبة
مماثلة في الذهاب إلى البحر.

«لأن الجنود لا يرغبون في إزعاج المستوطنين،
يدعون السيارات تمر».

وهكذا، سينطلق محمد الخطيب، بصحبة أصدقائه،
عدا واحد من بينهم لم يتبق متسع في السيارة له، ذات
صباح مبكر، من الخليل إلى طريق وادي النار، إلى أن
يصلوا إلى بيت جالا، عدا واحد من بينهم، يشعر بالدوران،
فيبدأ بالغثيان من جرّاء كثرة الالتواءات والانحناءات في
طريق وادي النار.

وبعد اجتيازهم بيت جالا، سيسحبون من حقائبهم
نظاراتهم الشمسية، ويضعونها على أعينهم، ثم قبعاتهم
الصغيرة المشابهة لتلك التي يرتديها المستوطنون،
ويثبتونها فوق رؤوسهم، ثم سيتجهون نحو حاجز النفق،
في ساعة الزحام القصوى، مع توجه مستوطني الجنوب
إلى أماكن عملهم في القدس.

ولأن الجنود لا يرغبون في إزعاج المستوطنين، أو
تأخيرهم عن عملهم، يدعون السيارات، من بينها

سيارتهم، تعبر الحاجز من دون إيقافها وفحص هويات رُكَّابها. إلا أنه في منتصف الطريق باتجاه البحر، ستسخر السيارة، وبعد ساعتين من محاولات تبريدها من دون جدوى، سيبقى صديق وآخر مع السيارة، بينما سيستقل محمد الخطيب الحافلة تلو الأخرى صوب البحر. وسيصل إليه محمد الخطيب في حوالي الساعة الخامسة عصرًا، من ١ أيلول ٢٠١٦، وسيكون أمامه ساعة كاملة قبل أن يُضطر أن يستقل الحافلات ثانية عائدًا إلى الخليل خلال فترة الزحام أيضًا، إذ ستكون فرصة عدم ملاحظته أكبر.

لكن تلك الساعة مع البحر هي ما يجدر أخذه بالحسبان، ويمكن حسابها كستين دقيقة أو ثلاثة آلاف وستمئة ثانية، وهو وقت لا نهائي. من أمكنه من قبل أن يحسب حتى الرقم ٣٦٠٠، عدا أمواج البحر؟

الإمكانية الثانية هي ألا يجد محمد الخطيب في كل منطقة الخليل صديقًا له لديه سيارة لوحتها الرقمية صفراء. وهكذا، سيجب عليه وعلى أصدقائه سلوك طريقة التهريب الثانية للوصول إلى البحر، والتي تتطلب السير لفترة طويلة على الأقدام.

مع ذلك، يُجهّز محمد الخطيب نفسه للانطلاق برفقة أصدقائه، قبل حلول الفجر. عليهم هذه المرة التوجه جنوبًا، وليس شمالًا، نحو منطقة الرماضين. هناك، بين

التلال الجرداء، يعبر مسار الجدار، الذي لا يزال العمل على إتمامه في طوره، كما أن بعض أجزائه تتكون من الأسلاك الشائكة فقط.

«سيصلون عدا واحد، فقد فردة حذاء خلال جريهم، وسيعود أدراجه».

سينزل محمد الخطيب وأصدقاؤه من السيارة المسروقة التي أقلتهم إلى هناك، وسيهرعون باتجاه سياج الشيك، إذ سيصلونه عدا واحد من بينهم، فقد فردة حذاء خلال جريهم، وسيعود أدراجه للبحث عنها. ثم حين سيقفزون عن السياج، سيتمزق بنطال صديق آخر من أسفل فخذة حتى مؤخرته، وسيتدفق الدم على طول ساقه، ويتخلف عنهم. كما لا يمكن لمحمد الخطيب أن يتأخر أكثر، وإلا سيلقون القبض عليهم، فيواصل الجري حتى يصل إلى حافلة بيضاء صغيرة سائقها من رهط، تنتظره بآبواب مفتوحة على مصاريعها. وما إن يدخلها حتى يغادر السائق المكان على أقصى درجة من السرعة.

ولكن الثمن باهظ، ويملك محمد الخطيب منه ما يكفي للثالث الأول من الطريق فقط. بلا نقود بحوزته، سيستقل محمد الخطيب مجاناً مركبة تلو الأخرى، حتى يصل إلى البحر حوالي الساعة الخامسة عصرًا، من ١ أيلول ٢٠١٦، وسيكون أمامه ساعة قبل أن يُضطر للبحث عن توصيلات مجانية مشابهة حتى الخليل.

لكن تلك الساعة مع البحر هي ما يجدر أخذه بالحسبان، ويمكن حسابها كستين دقيقة أو ثلاثة آلاف وستمئة ثانية، وهو وقت لا نهائي. من أمكنه من قبل أن يحسب حتى الرقم ٣٦٠٠، عدا أمواج البحر؟

ها هو محمد الخطيب يقف أمام البحر، حيث سيمكنه أخيرًا أن يصيح عاليًا: «هذا البحر لي». ويمكننا أن نتخيل، في الظروف الحالية، توافر إمكائتين على سبيل الرد من قبل البحر. الإمكانية الأولى هي أن البحر، إثر سماعه صيحات محمد الخطيب (بالعربية بالطبع)، ولمحه في يديه المرفوعتين فيما هو يُهرَع نحوه ما يشبه السكين، سيضطرب.

يعتقد البحر أن محمد الخطيب ينوي طعنه. الأخبار حول شباب من الخليل اشتبّه بتخطيطهم لعمليات طعن هي أكثر بكثير مما يمكن للبحر أن يكون هادئًا إزاءها. سيتصل البحر بالشرطة ليُعلمهم بهذا الصياح وهذه الهرولة. لكن قبل وصول الشرطة، والوقت يهرول، وكذلك محمد الخطيب، سيقفز البحر إليه لتحبيده، دافعًا إياه فوق الرمل، ثم سيسحبه إلى أعماقه حتى يحتوى خطره. ولكن، للأسف، سيموت محمد الخطيب في أثناء ذلك.

الإمكانية الثانية هي أن البحر، إثر سماعه صيحات محمد الخطيب (بالعربية بالطبع)، سيفتح قلبه، فهذا بحر يافا، ولم يسمع العربية في هذه النقطة منذ زمن بعيد، وربما سيلمح في يدي محمد الخطيب المرفوعتين فيما هو يركض نحوه ما يشبه العناق الذي ينوي أن يطوقه به.

ومثل أذني عاشق ومقلتيه، لا يخطئ البحر ما الذي يعنيه معشوقه، ولا يفهم منه العكس، إنما كما في الحب، حين يعلن أحدهم أن الثاني له، لا بد للثاني أن يعلن الأمر ذاته.

حين يسمع البحر صيحات محمد الخطيب «هذا البحر لي»، يرد منادياً: «أنت لي». ولا يدع البحر محمد الخطيب يغادره ثانية.

رام الله، ٢٠١٧

درس في طبيعة الثورة

يحيط ببيت والديّ حديقة كبيرة راحا يعتنيان بها عبر السنين بكد وبتفانٍ شديدين، فقد زرعا فيها مختلف أشجار الفاكهة والنباتات التي راحت تنمو ببطء لكن بإصرار، حتى جاء ذلك اليوم الذي غمرتنا به بثمارها، كالتين والعنب والرمّان والمشمش والأجاص والأكاديا والبلح والتوت واللوز وجميع أنواع الحمضيات، كما العديد من أنواع الخضار، منها الخس والبندورة والبقدونس والباميا والبطاطا والباذنجان والفلفل والبصل والثوم. باختصار، أحاطت ببيتنا حديقة جعلت من فكرة شراء الفاكهة والخضار من السوق، فكرة غريبة جدًا.

مع ذلك، على هامش هذه الحديقة، في طرفها الغربي الشمالي حيث كانت التربة أقل خصبًا وأكثر صخرية، نمت شجيرة قبار صغيرة. عدا عن شوكتها، كان لتلك الشجيرة زهورًا تتفتح مع نهاية الربيع فتبقى بتلاتها البيضاء الرقيقة تزين مختلف أطرافها حتى بداية الخريف، كما كان لها أوراق دائرية لم تكن تأبه بدورها بتبدل الفصول؛ أكان الوقت خريفًا أو ربيعًا، ولو ربيعًا عربيًا، تبقى

خفيفة الخضرة، دائمتها. وكانت هذه النبتة تنتج أيضًا على مدار السنة ثمرًا غريب الشكل، يشبه الحلق، كنا خلال لعبنا الطفولي نقطفه محاذرين الشوك، ثم نعلقه حول آذاننا ليروح ويهتز كالحلق المعلق في آذان أمهاتنا. عدا ذلك ما كنا لنعرف ما عسانا أن نفعل بهذه النبتة التي قلما التفتنا إليها، أو حتى إلى جمال زهرها الأبيض. لقد كانت دائمًا هناك، آخر ما نلحظ من حديقة البيت حين نعبها متجهين في الصباح الباكر إلى المدرسة، وأول ما يستقبلنا منها حين نعود، فكانت رؤيتها أحيانًا، رغم شوكةها القاسي وأوراقها شاحبة الخضرة، تبعث على الإحساس بالدفع والطمأنينة.

لكن على العموم، كانت نبتة القبار هذه تذكر بحقيقة تلك الرقعة من الأرض وطبيعة تربتها والنباتات التي راحت تنمو فيها، قبل أن يقتلعها والداي فيقضيان عليها جميعاً، كجزء من مخطط مشروع فردوسهما. لذا كانت هذه النبتة تغيظ والديّ جدًّا، إذ كلما اقتلعاها عادت لتنبت مجددًا، إلى أن تركاها وشأنها بعد وقت لتنمو كما تشاء وبدون عائق، خاصة وأن شوكة قد أنقذها من أيدينا الشيطانية نحن الأطفال، التي كانت أقل رحمة تجاه النباتات والأشجار الأخرى، بحيث كان على والديّ أن ينبهاننا كل بضعة دقائق ألا تدوس أقدامنا حوض البقدونس أو سرب شتل الباذنجان، وألا نتسلق شجرة المشمش أو الأكادنيا فنكسر أغصانها اليافعة الهشة.

إلى أن جاءت الضربة القاضية أخيراً! أو هكذا خيّل إلينا وبالتحديد إلى والديّ، اللذين قررا تشييد مخزن صغير مكانها، لم نكن حقاً بحاجة إليه، لكن على الأقل قالوا يستغلان تلك المساحة بما يخدمهما بدل من أن تبقى تحتلها نبتة القبّار تلك التي لما يجدا فائدة ترجى منها. وهكذا، أفاقا ذات صباح وباشرا بحفر حفرة بعمق حوالي متر، على مساحة أربعة أمتار مربعة، ليقتلعاها بذلك تماماً، بل ليستئصلا جذورها من الأرض كلية. بعدها غمرا تلك الحفرة بالصخور ومن ثم غطياها بالأسمنت، وبعد أن انتهيا من تشييد المخزن، بلطاها. وبدوره، لم يثر هذا المخزن الذي استخدم والديّ في صنع جدران حجارة بركانية مكعبة الشكل سوداء جرداء، إحساساً خاصاً بالدفع والطمأنينة على غرار نبتة القبّار، إنما بالجبروت، خاصة جبروت والديّ. فقد بدا أخيراً بأنهما نجحا بإقضاء آخر مظاهر الطبيعة الحقيقية، المتمثلة بالنباتات الشوكية، من حول بيتهما.

كان ذلك قبل عقدين ونيف تقريباً، حين شيّد والداي هذا المخزن.

في الصيف الماضي حين قمت بزيارة والديّ، دفعني الحنين إلى تفقد ذلك الجزء الخلفي من الحديقة وبوابته السرية التي رحت ألجها خلال طفولتي بينما أنا في طريقي إلى المدرسة ومنها، وهو ما لم أفعل منذ أن أنهيت

المدرسة وتركت البيت. عندها، لمحت فجأة في أعلى
جدران المخزن، بين حجارته البركانية السوداء الجرداء،
شيئاً من الخضرة الخفيفة. كانت نبتة القبار قد تبرعمت
من جديد، هذه المرة، بين شقوق جدرانها.

برلين، ٢٠١٢

مكتبة

t.me/soramnqraa

عدنية شبلي

كاتبة وأكاديمية، ولدت في فلسطين عام ١٩٧٤. نشرت العديد من القصص والمقالات السردية في مجلات مختلفة، وحازت على جائزة الرواية مرتين من مؤسسة عبد المحسن القطان في فلسطين عن روايتها "مساس" (٢٠٠٢) و"كلنا بعيد بذات المقدار عن الحب" (٢٠٠٤). روايتها "تفصيل ثانوي" (٢٠١٧) تُرجمت لأكثر من أربعين لغة وترشّحت للقائمة الطويلة لجائزة البوكر الدولية عام ٢٠٢١، ولائحة جائزة الكتاب الوطني للأدب المترجم عام ٢٠٢٠، وأحدث كتبها رواية "تمويه" (٢٠٢٥). حصلت شبلي على دكتوراه من جامعة شرق لندن في العلوم الإنسانية والاجتماعية عام ٢٠٠٩. وتعمل في مجال التدريس والبحث الأكاديمي.

إحياءات واهنة بالطمأنينة

- صمت الصورة ٥
- ليحفظ الله الحب في مكان جاف وبارد ٩
- أفضل فراشات وأفضل مروحيات لعام ٢٠٠٠ ٣٥
- فطر يذبل في ثلاجتي ٥١
- نعي أستاذ فاضل من حي الأرمن، شارع أراط رقم ١٩ ٥٧
- درس في رقص التانجو ٧١
- لون الرماد الذي في عيني جدتي ٨١
- خارج الوقت ٨٧
- إحياءات واهنة بالطمأنينة ٩٣
- بدم بارد ١٠٩
- غبار ١١٥
- التحليق بعيدًا ١٣٧
- هذا البحر لمحمد الخطيب ١٤٣
- درس في طبيعة الثورة ١٥٣

مكتبة

t.me/soramnqraa

”

في الطريق، كان يقف أولاد صغار يرمون الحجارة ويبتسمون للجنود. والجنود هناك، خلف الأشجار والسياح وأكياس الرمل والباطون وواقى الرصاص، مختبئون.

وفي الحافلة، كان الناس مثل أمام شاشة التلفزيون عندما كانت أمي تشاهد أحياناً المصارعة وتحاول تنبيه المصارع إلى ضربة من الجانب، لكن لا أحد يسمعه، لأنهم داخل التلفزيون، لأنهم خارج الحافلة، واقفين بعضهم إلى جانب بعض، وواحد على الأقل يمشي حالماً. وأنا، في كل هذا، أنتظر رسالة منه، أو فراشة حتى لا أفكر به، وعندما تصل، أذرف دمعين بالضبط ثم أنام من دون فائدة، إذ أصحو مبكراً، حزينة، كأن النوم لم يكن قط بين تلك الليلة وذلك الصباح.

ما بين الفراشات والمروحيات، والحب والاستعمار، تقترب عذنية شبلي في نصوص وقصص "إحياءات واهنة بالطمأنينة" من أكثر القضايا عنفاً وصخباً، وأدق المشاعر والهواجس وأكثرها رهافة، لترسم لوحات معاصرة لتوتر الذات والعالم.

عذنية شبلي، كاتبة فلسطينية، ترشحت روايتها "تفصيل ثانوي" (٢٠١٧) لجائزة البوكر الدولية (٢٠٢١) وجائزة الكتاب الوطني للأدب المترجم (٢٠٢٠)، وحازت على جائزة الرواية مرتين من مؤسسة عبد المحسن القطان في فلسطين عن روايتها "مساس" (٢٠٠٢) و"كلنا بعيد بذات المقدار عن الحب" (٢٠٠٤). كما صدر لها مؤخراً رواية "تمويه" (٢٠٢٥).



مكتبة

t.me/soramnqraa